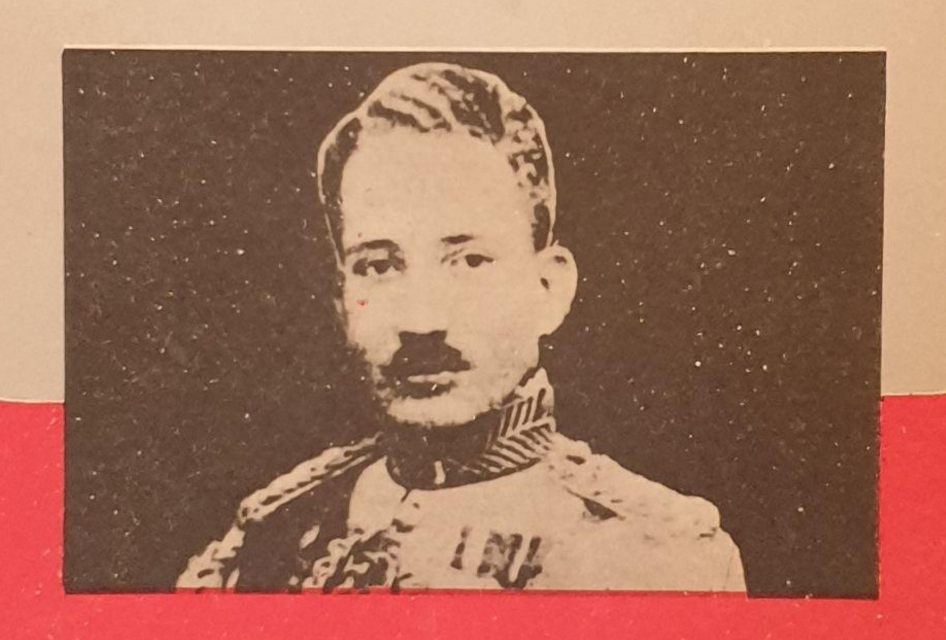
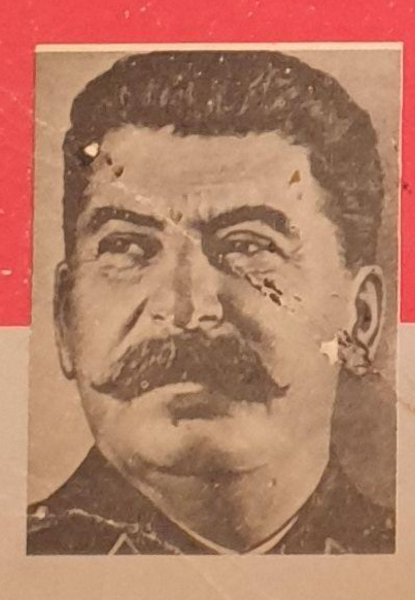
محمود شبيب

غوامض من تاريخ
العراق والعرب والعالم







عبد الحميد

الطبعة الاولى

١٩٨٤

محمود شـــبيب

غوامض من تاريخ

العـراق والعـرب والعالـم

الطبعة الاولى

١٩٨٤

جميع الصور والوثائق الواردة في هذا الكتاب تعــود الى جهود المؤلف الخــاصة ولا علاقة لاي كان بها .

الفصل الاول

الف الوزارة فطردوه !

في الثالث من ايلول ، ١٩٣٩ ، اشتعلت نار الحرب العالمية الثانية عندما اعلنت كل من « بريطانيا » و « فرنسا » الحرب على « المانيا » نتيجة لاستمرارها في غزو « بولندا » . وكانت الحكومة العراقية . آنذاك ، برئاسة « نوري السعيد » الذي بادر من تلقاء ذاته ورغم المعارضة الواسعة النطاق شعبيا وحكوميا ، الى قطع العلاقات الدبلوماسية مع « برلين » والقاء القبض على رعاياها وتسليمهم للانكليز الذين قرروا تسفيرهم الى « الهند » باعتبارهم اسرى حرب .

وهنا يظهر ان المسألة لم تقف عند ذلك الحد ، فقد كانت « لندن » مصرة على وجوب مبادرة « العراق » الى اعلان الحرب على « المانيا » وتحويله ، في واقع الامر ، الى ساحة مفتوحة للمجهود الحربي البريطاني . وكان هذا الاصرار بالذات ، من اهم الاسباب التي ادت الى الحرب العراقية ــ البريطانية التي اندلعت في مايس عام ١٩٤١ .

٣ شخصيات

وعلى أية حال ، فبعد انتهاء الثورة المذكورة بالشكل المعروف ، وحتى قبل ذلك ، كانت هناك ثلاث شخصيات عراقية مرشحة لتولي رئاسة الوزارة الجديدة ، وهي « السعيد » و « علي جودت » و « جميل المدفعي » وكان هؤلاء قد غادروا العراق في فترات متفاوتة وبطرق مختلفة في اعقاب توجه الوصي « عبدالاله » الى قاعدة الحبانية في الاول من نيسان ذلك العام ثم الى « البصرة » و « شرقي الاردن » و « فلسطين » ثم عادوا معه الى « بغداد » في اليوم الثاني من حزيران بعد دخول القوات الانكليزية الى « بغداد » في الاول من نفس الشهر .



صورة نادرة تجمع بين « السعيد » بيده مسبحة و « علي جودت » و « المدفعي » بعد عودتهم الـى بغداد

وعلى الرغم من ان « السعيد » كان النجم الاول في التشكيلة ، وان الاصابع كانت تشير اليه على انه الفائز المؤكد في السباق ، الا ان الاوضاع الملتهبة ورغبة الجهات المعنية في تجنب حدوث اصطدام مباشر مع الشعب(١) الذي كان يغلي سخطا وغضبا على ما قامت به الطبقة الحاكمة من اجل القضاء على ثورة مايس التي كانت تمثل ذروة التطلع القومي والوطني للبلاد ، قد ادى الى تكليف « المدفعي » برئاسة الحكومة نظرا لما كان انصاره يشيعون عنه انه « رجل التهدئة » .

سابقة

وكان « المدفعي » قد تولى رئاسة الوزارة في اعقاب اغتيال الفريق « بكر صدقي » قائد اول انقلاب عسكري في تاريخ العراق والعرب الحديث ، وهو الاغتيال الذي جرى في مطار « الموصل » العسكري في ١١ آب عام ١٩٣٧ (اي بعد قرابة سنة على حدوث الانقلاب) مما ادى الى اضطرار رئيس الوزارة الانقلابية « حكمت سليمان » الى الاستقالة من منصبه بعد ثلاثة ايام فقط من الحادث .

وفي الشهور التي اعقبت الانقلاب ، ظل « السعيد » مقيما ، مع عائلته ، في القاهرة بعد ان هدد « صدقي » باغتياله مع عدد من كبار الساسة امثال « ياسين الهاشمي » و « رشيد عالي الكيلاني » و « مولود مخلص » بيد انه لم يلبث ان عاد الى « بغداد » بعد مقتل قائد الانقلاب والتطورات التي اعقبت ذلك .

ولقد اوجس « المدفعي » خيفة من وجود « السعيد » في العاصمة ، وكان ذلك الخوف في موقعه ، اذ ان الاخير دبر مؤامرة مع كبار ضباط الجيش الذين تربطه بهم عدة وشائج الى ان استطاع النجاح في ذلك ليلة الخامس والعشرين من كانون الاول ١٩٣٨ وارغم « المدفعي » على الاستقالة وتولى السلطة بدلا منه .

ومن الواضح ، والحالة هذه ان تدل الدلائل على ان الاخير قد



جميل المدفعي

اشترط ابعاد « السعيد » عن المسرح العراقي قبل موافقته على تأليف الوزارة ، في تلك الفترة البالغة الخطورة ، وذلك خوفا من تكرار السابقة التي اشرنا اليها .

وبالفعل ، فما ان صدرت مراسيم التشكيلة الحكومية الجديدة . حتى اعقبها آخر يقضي بتعيين « السعيد » وزيرا مفوضا للعراق في مصر(٢) ، وجاء في المرسوم ان الاخير سيعمل مندوبا لدى « بلاط صاحب الجلالة الملك فاروق الاول » !

الوزير العتيد

وتشير الوقائع التاريخية الى انه كانت هناك مفارقة في التشكيلة الوزارية ، ذلك انه اذا قيل بأن الحكومة الجديدة ضمت رئيسا سابقا للحكومة هو « توفيق السويدي » اضافة الى سياسيين معروفين مثل « مصطفى العمري »(٣) والشيخ « محمد رضا الشبيبي »(٤) فان الانظار ستتركز على وزير المالية ووكيل وزير العدلية «ابراهيم كمال» باعتباره قد شغل المكانة الثانية من حيث الاهمية بعد رئيس الوزراء مباشرة .



عبدالاله

والواقع ، فان « ابراهيم كمال » لم يكن جديدا على سير الاحداث في العراق ، فقد سبق له ان شغل نفس المنصب في حكومة « المدفعي » الرابعة التي تألفت في آب ١٩٣٧ ، اثر انهيار حكومة « سليمان » .

وكان هذا الرجل قد تسبب في ازمة غريبة . ذلك ان وزير الاشغال والمواصلات آنذاك « جلال بابان » كان قد طلب من مجلس الوزراء زيادة المبلغ المتفق عليه مع احد المقاولين بعد انجازه تبليط قسم من طريق الرمادي ـ الرطبة . فما كان من « كمال » الا ان وجه انتقادا شخصيا وجارحا الى زميله متهما اياه بالتواطؤ مع المقاول المذكور . فبادر « بابان » الى الاستقالة بعد ان وجه رسالة احتجاج الى « المدفعي » الذي عهد بالمنصب الى غريمه !

وبعد مدة من الزمن ، اتضح ان هذه الخطة كانت مدبرة بين عدة جهات ، حيث بادر « كمال » باعتباره وزيرا للاقتصاد بالذات الى منح امتياز استغلال نفط « البصرة » الى احدى الشركات الانكليزية وهو الاجراء الذي قوبل بالاستنكار من جانب المعارضة في مجلسي الاعيان النواب وعلى مستوى الشارع مما ادى الى اعتقال عدد من المتظاهرين واحالتهم الى المحاكم .

رجل التهدئة

ويبدو ان صاحبنا قد شعر بقوة موقع قدميه بعد اقدامه على تلك الخطوة ، فتطلع الى رئاسة الوزارة ، غير ان ذلك كان من قبيل الاحلام . اذ سرعان ما اطاح انقلاب عسكري جرى في كانون الاول ١٩٣٨ بالحكومة بأسرها !

نعود الى عام ١٩٤١ ، اذ ذكرنا ان « رجل التهدئة » هو الذي اصبح رئيسا للوزراء الا ان هذا لم يمنعه من اتخاذ اجراءات استهدفت فصل بعض الموظفين الذين سايروا ثورة مايس من الخدمة في دوائر الدولة واعتقال بعض المتهمين بهذا الاتجاه وان جرى ذلك على نطاق غير واسع جدا . ومن الواضح ان هذا كان من الاسباب التي ادت الى تذمر السفارة البريطانية من سلوك الحكومة اذ كانت الاولى تريد اتباع سياسة اكثر شدة تجاه كل من ساهم في الثورة وايدها من قريب او بعيد الامر الذي كان يتناقض ، الى حد ما ، مع الطريقة التي ارتأى « المدفعي » اتباعها .

وكان « الوصي » راغبا في مكافاة بعض الاشخاص الذين وقفوا الى جانبه ومنهم « صالح جبر » الذي اقترح تعيينه بمنصب رئيس الديوان الملكي ، بيد ان وزير المالية هدد بالاستقالة في هذه الحالة مما ادى الى توتر العلاقات الشخصية بينه وبين « عبدالاله » .

وشاءت الصدف ان يسافر السير « كينهان كورنواليس » السفير البريطاني ببغداد الى « سوريا » و « لبنان » للاستجمام واستطلاع الامور بعد ان استطاعت القوات البريطانية الاستيلاء عليها والقضاء على السلطة الموالية لسلطة « فيشي » في فرنسا التي اقامها الالمان في حزيران ١٩٤٠ بعد استيلائهم على معظم الاخيرة . وعندما ترك « كورنواليس » بغداد اصبح « هولمان » مستشار السفارة(٥) نائبا عنه .



كورنواليس

وفي هذه الاثناء ، التقى نائب السفير مع وزير المالية الطموح ، فأبدى الاول تذمره الشديد من « الموقف اللين لحكومة المدفعي تجاه مشايعي الثورة بالشكل الكامل المطلوب »(٦) ثم عبر له عن رأيه في أنه لو اصبحت رئاسة الوزارة من نصيبه لاستطاع اداء خدمة « للحليفة » كما كان يطلق على بريطانيا آنذاك ، وهي « خدمة لا تقدر بثمن »(٧) على حد تعبيره !

موقف المدفعي

والظاهر من سير الاحداث ، ان نائب المستشار ايد « كمالا » في اقواله ورسم له خطة معينة للعمل(٨) ، فاعتبر الاخير بمثابة تكليف ، وهكذا شرع بشن هجمات عنيفة على « المدفعي » في مجلس الوزراء متهما

اياه بأنه « متساهل ازاء المخربين والهدامين » فما كان من الاخير الا ان صرح امام مجلس النواب بما يلي : « ان سياسة الاتزان والتعقل هي السياسة التي يجب ان تتبع في هذه الاونة . وان المجلس يعلم – علم اليقين – بأنه لا الشعب يساند الحكومة في اجراءاتها ولا القوة التي يجب الارتكاز عليها ميسورة لديها » .



ابراهيم كمال

ومن قبيل الاحتجاج بادر « كمال » الى تقديم استقالته من منصبه بموجب الكتاب التالي : « لقد ظهر لي من مناقشة بعض المسائل العامة في اجتماع مجلس الوزراء ومجلس النواب ان هنالك اختلافا ظاهرا ما بين فخامتكم وبيني ، مما لا يمكن معه تأمين التآزر المطلوب ، لذا ارى من واجبي ان اقدم استقالتي لافسح المجال للعمل ، وفق ما تعتقدونه صالحا » .

ساعة العمل

كان ذلك في ٢ ايلول ١٩٤١(٩) فصدرت الارادة الملكية بقبول الاستقالة ، بيد ان الامور بالنسبة « للمدفعي » سارت في طريق غير متوقع على الاطلاق ، اذ انه لم يلبث ان وجد نفسه « ملزما » بطلب اعفائه من منصبه في ٢١ ايلول !

ومن الواضح ان الوزير المستقيل ادرك ان ساعة العمل قد دقت ، لذا عاود الاتصال مع « هولت » الذي فاتح « عبدالاله » بالأمر بيد ان الاخير اشترط ، مقابل موافقته ، ان يكون « صالح جبر » عضوا في الحكومة الجديدة !

بادر « كمال » الى مفاتحة مجموعة من الساسة بينهم « جمال بابان » و« توفيق النائب » و « هاشم الوتري » الطبيب المشهور والوزير السابق « عبد المهدي المنتفكي »(١٠) والحاكم « معروف جيا ووك » وغيرهم . ومن المعروف انه لم يكن لاي من هؤلاء اي دور بارز في الاحداث السابقة التي هزت القطر العراقي .

في غضون ذلك ، وقعت مفاجاة جديدة ، ذلك ان « السعيد » قد وصل الى « بغداد » قادما من « القاهرة » مقر عمله كوزير مفوض دون ان يعرف احد سببا لذلك . فلما وقعت الازمة الحكومية ، بذل « كمال » اقصى جهوده من اجل ادخال «نوري» في التشكيلة .

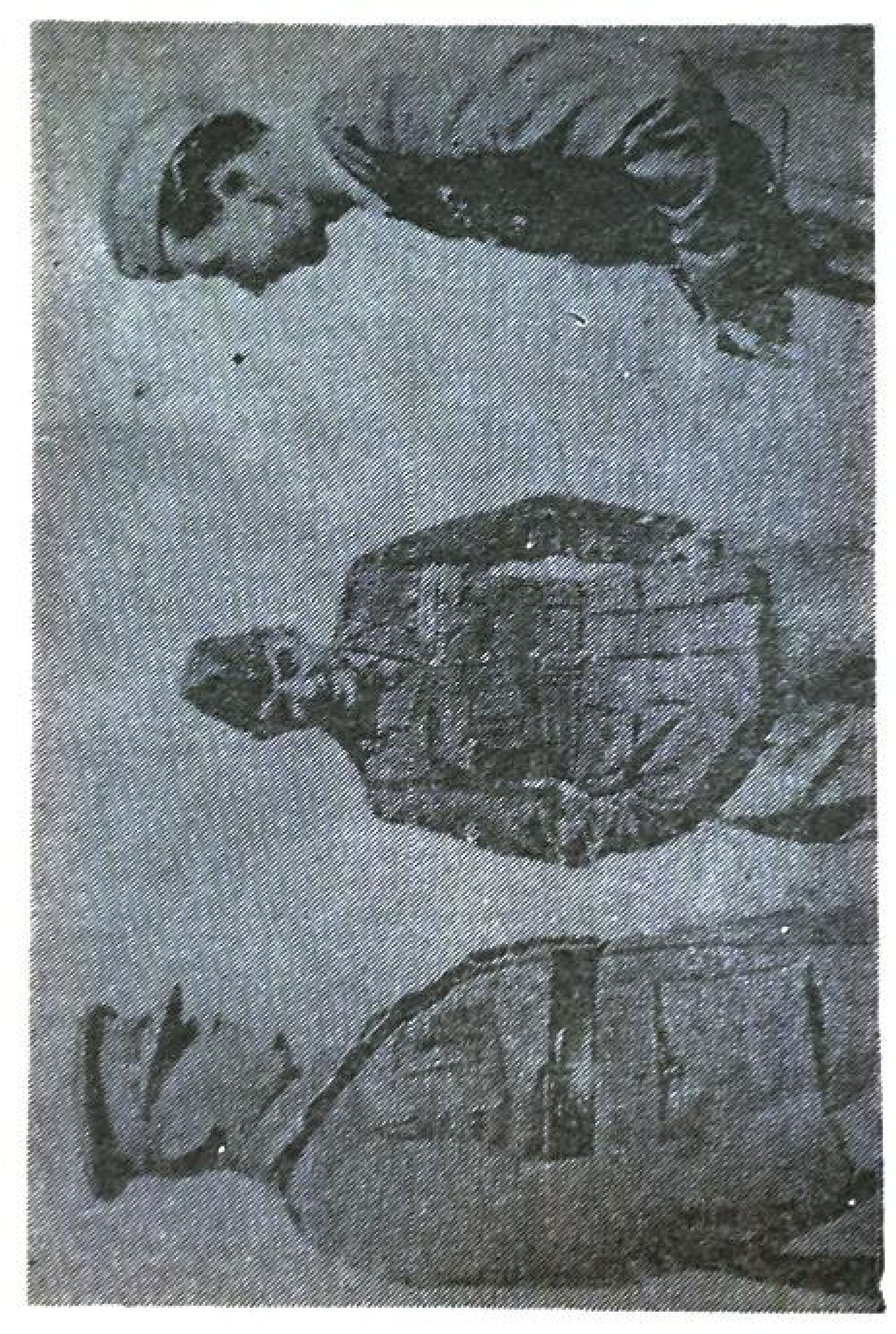
ومن اطرف الامور ، ان المرشح للرئاسة قام بتكليف « تحسين العسكري » ان يفاتح عديله « السعيد » بالعرض ، ولما سأله هذا : لماذا لا يفاتحني ابراهيم في الامر ؟ اجابه تحسين : انه يستحي منك . فقال الباشا : الا تستحي انت ؟

ومات كمدا

استمرت المناورات السياسية هذه حوالي اسبوعين ، فلما عاد « كورنواليس » من اجازته ، اخبروه بان « ابراهيم كمال » على وشك انجاز المهمة التي يبدو انه لم يكن له علم بها .

وكانت المباغتة الاخيرة في هذا المجال ان السفير لم يكن خالي الوفاض ، اذ حمل معه تعليمات جديدة تقضي بأن تكون رئاسة الوزارة من حصة « السعيد » وان يتولى « جبر » وزارة الداخلية حتى يمكن تصفية الحساب مع كل من له صلة ، من قريب او بعيد ، مع ثورة مايس وهذا ما تم فعلا .

اما « ابراهيم كمال » فانه لم يشغل بعد ذلك ، اي منصب وزاري ، الى ان وافته المنية كمدا في تموز ١٩٤٧ .



عبدالاله والسعيد مع المارشال ميتلاند ولسون ، القائد العام للقوات البريطانية

هوامش الفصل الاول

(١) لكن الاصطدام حدث فعلا بعد ذلك .
(٢) مع العلم ان السعيد ، الوزير المفوض الجديد ، شغل رئاسة الحكومة العراقية اربع مرات قبل ذلك !
(٣) وزير سابق اكثر من مرة .
(٤) كذلك .
(٥) لعب دورا بارزا في قمع ثورة مايس .
(٦) من مقال في جريدة الاهالي نشر في ٤ آب ١٩٤٤ اي بعد حوالي عامين من هذا الحدث.
(٧) نفس المصدر .
(٨) ويبدو ان المستشار تصرف من تلقاء ذاته كما تشير تطورات الامور الى ذلك فيما بعد.
(٩) اي بعد ثلاثة شهور فقط من تاليف الوزارة .
(١٠) نسبة الى لواء « المنتفك » وهو محافظة « ذي قار » حاليا .

الفصل الثاني

انقلاب البغدادي في اسطنبول

تكونت الامبراطورية العثمانية ، وهي اعظم الدول الاسلامية في التاريخ ، بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر على يد الاتراك العثمانيين بعد تفكك الامبراطورية السلجوقية(١) ، واتسعت رقعة البلاد تحت حكم عدد من السلاطين الاكفاء (كان اولهم عثمان ـ مؤسس الاسرة العثمانية) ثم مراد الاول ، وبايزيد الاول ، على حساب الامبراطورية البيزنطية ومملكتي بلغاريا وصربيا .

وفي سنة ١٤٥٣ سقطت القسطنطينية في يد محمد الثاني فورث أملاك الامبراطورية البيزنطية . وبلغت الدولة العثمانية ذروة مجدها في القرن ١٦ في عهد سليم الاول الذي انتصر على السلطان الغوري في معركة برج دابق عام ١٥١٦ واستولى على سورية ومصر (١٥١٦ ـ ١٥١٧) وتنازل له الخليفة الفاطمي المتوكل عن لقب الخلافة . كما اتسعت في عهد سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) الذي فتح معظم بلاد اليونان والجزائر والمجر ، وكثيرا من انحاء فارس وبلاد العرب ، ولكن تركيا ظلت دولة تغلب عليها خصائص العصور الوسطى فاحتفظت بالنظام البيزنطي الاستبدادي الذي لم يكن يخفف من وطأته سوى مراعاة الشريعة الاسلامية .

اول انكسار

بدأ الضعف يدب في اوصال الامبراطورية العثمانية على اثر موت سليمان القانوني ، فقد اصيبت باول انكسار حربي عندما هزم الاسطول التركي(٢) في معركة « ليبانتو » البحرية سنة ١٥٧١ بواسطة الاسطولين الاسباني والبندقي(٣) وكانت اكبر صدمة لحقت بالترك عند اضطرارهم الى رفع الحصار عن « فينا » عام ١٦٨٣ أمام قوات شارل الخامس امير اللورين ولويس دوق بادن ، ويوجين امير دوقية « سافوي » فاكره الترك على عقد معاهدة كارلونزو سنة ١٦٩٩ التي نزلوا فيها عن بلاد المجر وممتلكات اخرى .

وهنا اخذ التدهور السياسي والضعف العسكري يسريان في جسم الدولة . فصار قواد الانكشارية(٤) ينصبون السلاطين ويخلعونهم . وانتشرت الرشوة وتغلغل الفساد . وضاعف من سرعة الانهيار حروب روسيا ضد تركيا في القرن الثامن عشر حتى صار مصير « رجل اوربا المريض »(٥) بعد حرب الاستقلال اليونانية مصدر قلق الساسة الغربيين .

المسألة الشرقية

بدات هذه بنهضة روسيا دولة اوربية تحت حكم قيصرها « بطرس الاكبر » وبانحلال تركيا منذ مطلع القرن الثامن عشر . فقد ساد انكلترا وبروسيا الخوف من نتائج التوسع الروسي ، عقب الحروب التركية الروسية التي نشبت في القرن الثامن عشر ، اذ رات بريطانيا في هذا التوسع تهديدا لمصالحها الكبيرة في الهند ، فتحالفت مع « بروسيا » و « هولندا » للوقوف في وجه الخطة النمساوية ـ الروسية التي رمت بأن تستولي « روسيا » على المضايق(٦) والقسطنطينية ، وان تبسط « النمسا » نفوذها على بعض الاراضي البلقانية .

وتتابعت الحروب بين روسيا وتركيا طوال القرن التاسع عشر بسبب المطامع الروسية ، فنشبت الحرب بينهما (١٨٠٦) انتهت بصلح « بخارست » الذي حصلت فيها روسيا على بعض المكاسب على البحر الاسود . وتلتها الحرب بينهما (١٨٢٨ ــ ٢٩) وانتهت بصلح ادرنه . الذي اعترف فيه الباب العالي(٧) باستقلال اليونان . وانقلب الحال ، حين هدد « محمد علي » ابان السنين الثلاثينية السلطنة العثمانية بالدمار ، بيد ان « روسيا » و « بريطانيا » اتحدتا مع تركيا للوقوف بوجه والي مصر وحرمانه من مكاسبه الحربية (١٨٣٣ ــ ١٨٤٠) . ولكن ما لبث هذا الحلف غير الطبيعي ان انهار ، فانه حينما طالب قيصر روسيا بحق حمايته للرعايا المسيحيين في الامبراطورية العثمانية تحالفت انكلترا وفرنسا لمد يد المساعدة الى تركيا في حرب « القرم » التي امتدت من ١٨٥٣ حتى ١٨٥٦ التي خرجت منها روسيا مهزومة . ونشبت حرب رابعة بين روسيا وتركيا (١٨٧٧ ــ ٧٨) خرجت منها روسيا ظافرة ، واملت على غريمتها شروطها في معاهدة « سان ستفانو » ١٨٧٨ ولكن بريطانيا تمكنت بدهائها السياسي من حرمان روسيا من اكثر مكاسبها في معاهدة « برلين » عام ١٨٧٨ بتأييد « بسمارك » مستشار المانيا لها . ومنذ ذلك الحين اصبحت تركيا تعرف بأسم « رجل اوربا

المريض » الذي تنتظر الدول الاوربية الكبرى وفاته حتى تقوم باقتسام ممتلكاتـــــه .

الاتحاد والترقي

وعند هذه المرحلة ، بدأت الاصوات بالارتفاع وهي تنـادي بانقـاذ الدولة من مصير التمزق وذلك عن طريق ادخال اصلاحات تحولها الى دولة حديثة ، وبالفعل بادر رئيس الوزراء « مدحت باشا »(٨) الى وضع دستور للسلطنة عام ١٨٧٩ ، ولكن السلطان « عبدالحميد الثاني » تنكر له حينما ثبت اقدامه على العرش ثم سجنه بتهمـة قتلـه السـلطان « عبدالعزيز » ومات مدحت في السجن مخنوقا(٩) .



مدحـت باشا

في غضون ذلك برزت للوجود تنظيمات وجمعيات سرية ذات اهداف مختلفة . بيد ان ابرزها كانت « جمعية الاتحاد والترقي » او « حزب تركيا الفتاة » الذي ضم عددا كبيرا من الضباط الشبان من ابرزهم « انور » و « جمال » و « طلعت » وسعت الجمعية من اجل ارغام « عبدالحميد » على تحقيق المطالب التالية :

اولا : تحويل تركيا الى دولة حديثة عن طريق ادخال الاصلاحات .

ثانيا : سن دستور للبلاد يعرف بأسم « المشروطية » .

ثالثا : اقامة مجلس يضم ممثلين عن مختلف الولايات يطلق عليه اسم « المبعوثان » .

رابعا : تحديث الجيش العثماني وتزويده بالاسلحة الاوربية الجديدة ، خاصة من المانيا ، وذلك للحيلولة دون نجاح الحركات الانفصالية التي بدت نذرها في الافق وكذلك وقف محاولات الدول الاوربية لغزو بعض ولايات الدولة كما حدث بالفعل من جانب « ايطاليا » ضد « ليبيا » فيما بعد .

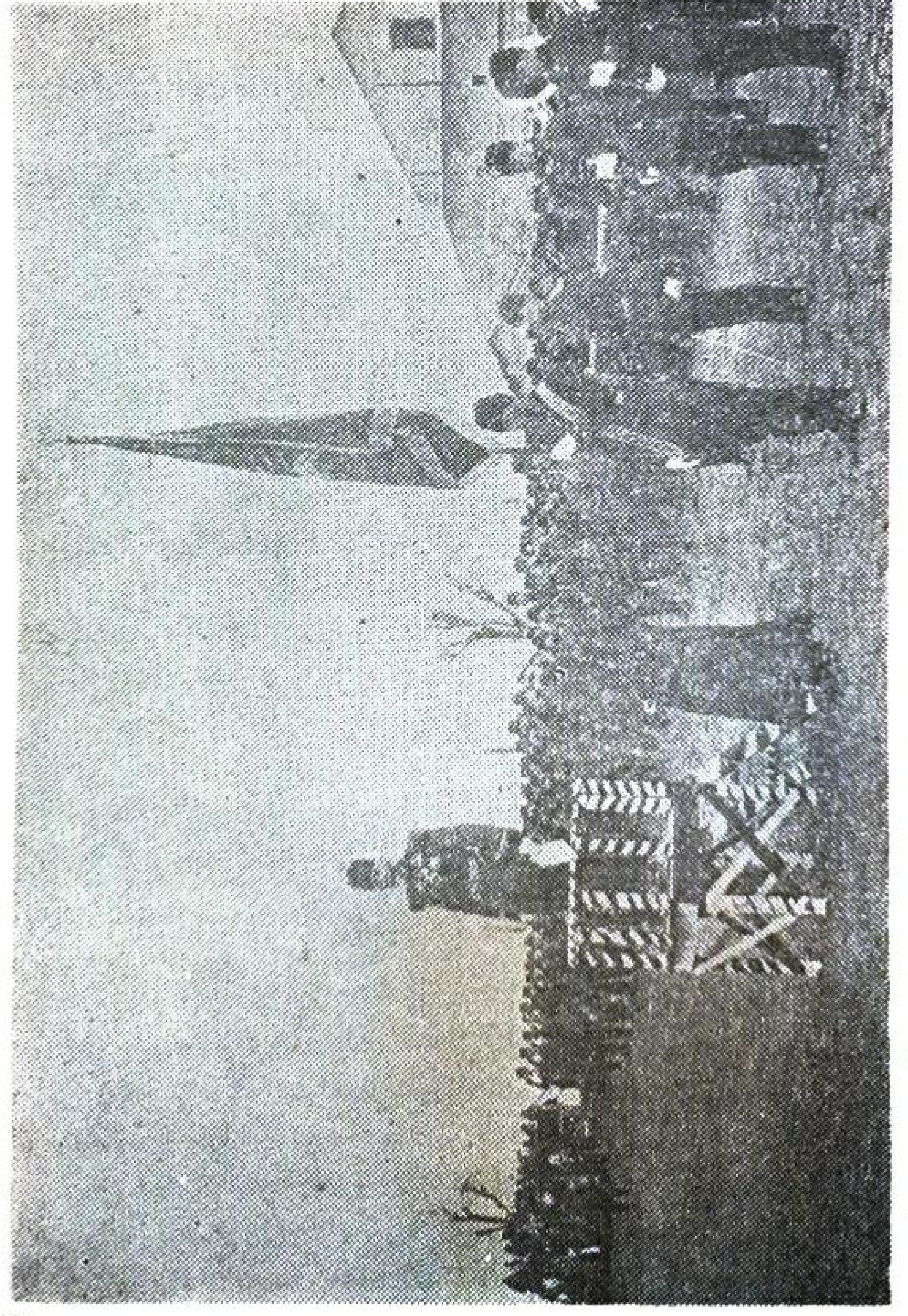
ولقد مارست « جمعية الاتحاد والترقي » مختلف انواع الضغط على « عبدالحميد » الى أن حصلت منه عام ١٩٠٨ على وعد بالاستجابة للمطالب المشار اليها خاصة فيما يتعلق « بالمشروطية » و « المبعوثان » بيد انه لم يلبث ان تنكر لوعده واتجه ، بدلا من ذلك ، الى محاولة التنكيل باعضاء الجمعية ، بيد ان هؤلاء بادروا الى تدبير انقلاب خاطف بقيادة « محمود شوكت باشا » احد ابرز الاعضاء ، فمن هو ؟

سيرة حافلة

ولد « محمود شوكت باشا »(١٠) في بغداد عام ١٨٥٨ وتعلم بها ثم بالمدرسة الحربية في الاستانة . ترقى في المناصب العسكرية ، وحاز رتبة الفريق وعين واليا لقونصوه ، فقائدا للفيلق الثالث(١١) في «سالونيك»(١٢) وكان من اعضاء جمعية « تركيا الفتاة » التي سبق الاشارة اليها بالتفصيل .

وعندما اتضحت نوايا السلطان « عبدالحميد » في التنكر للوعد الذي اعطاه لاعضاء الجمعية عام ١٩٠٨ ، وكذلك محاولة التنكيل باقطابهم ، عهد هؤلاء الى « محمود شوكت باشا » الذي كان يتولى قيادة

اقوى تشكيلات ضاربة في الجيش العثماني واقربها من « اســطنبول » بالزحف على العاصمة وارغام « عبدالحميد » على التخلي عن العرش هذه المرة وتنصيب شقيقه « محمد رشاد » بدلا منه أي ان تكون الســلطة الفعليــة بأيــدي الاتحاديين .



شوكت باشا الملقب « البغدادي » يستعرض الجيش العثماني وقد بدا « شيخ الاسلام » عن يساره

النهاية

اتخذ « شوكت » استعداداته للأمر بسرية تامة . وما أن حل فجر التاسع من ايلول ١٩٠٩ . حتى زحف فيلقه من « سالونيك » فوصلها في مساء اليوم نفسه حيث قام بتطويق قصر « يني بقجة » حيث يقيم السلطان وسلم الى حاشيته انذارا بوجوب التخلي عن منصبه في ساعة متأخرة من الليل وهذا ما تم فعلا ، فاقتيد « عبدالحميد » وأسرته الى الاقامة الجبرية في جزيرة تقع على مقربة من ميناء « ازمير » على البحر المتوسط ثم الى جزيرة اخرى في « البحر الاسود » حتى قضى نحبه عام ١٩١٨ اي قبل الاعلان عن هزيمة الدولة العثمانية امام الحلفاء بوقت قصير .



عبدالحميد الثاني
في اوائل عهده بالحكم

وفي اليوم التالي ، تولى « حقي باشا » منصب الصدارة العظمى ورقي « محمود شوكت » الى رتبة مشير ،واصبح ناظرا (وزيرا) للحربية ، بيد ان « حقي باشا » لم يلبث ان قدم استقالته من منصبه بداية عام ١٩١١ نتيجة للغزو الايطالي لليبيا فاعقبه « سعيد بك كوجوك » وظل « شوكت » وزيرا للحربية الى أن تولى الصدارة العظمى بنفسه اواخر نفس العام . وفي عهده اشتدت سيطرة الاتحاديين الذين بادروا

الى اغتياله علنا امام نظارة الحربية في نيسان ١٩١٣ فحل محله « ناظم باشا » الذي سبق له وان اشغل ولاية « بغداد » .

وعلى اية حال ، فان بعض المؤرخين يشيرون الى دور خفي لعبه الماسونيون في اسقاط السلطان « عبدالحميد » فمن المعروف ان عددا من قادة الاتحاديين كانوا ينتمون الى جمعيات ماسونية ، كما ان معظم سكان « سالونيك » هم من « الدومنة » وهي طائفة كانت تدين ذات يوم ، باليهودية ثم تحولت الى الاسلام وان ظل ولاؤها الحقيقي لدينها القديـــم .



ثيودور هرتزل

ويربط المؤرخون هذه الحقائـــق بما هـــو معـــروف ان « تيـــودور هرتزل » مؤسس الحركة الصهيونية قد بذل اقصى ما في وســعه ، بمعونة من انصاره في الاستانة ، لمقابلة السلطـــان « عبدالحميد » فلما تحقق له ذلك ، طلب منه السماح ليهود العالم بالاستيطان في « فلسطين » مقابل تزويد الدولة العثمانية بقدر كبير من المال اضافــة الــى الخبرة الفنية ، بيد ان السلطان قابل العرض بالرفض المطلق . ومهما يكن مــن امر ، فان كشف الحقيقة متروك لمستقبل الايام .

هوامش الفصل الثاني

(١) تنتسب الى سلجوق والتي ظهرت في ايران في القرن العاشر حيث كانت الاحوال السياسية ملائمة لقوتهم . لم يلبثوا ان سيطروا على خوارزم وايران واتخذوا اصفهان عاصمة لهم .

(٢) كانت الدولة ذات صبغة حربية برية عند بروزها ولكنها سرعان ما تحولت الى قوة برية ـ بحرية وذلك بحكم انها مطوقة بالبحر الاسود من الشمال والابيض المتوسط من الجنوب وبحري « ايجة » و « مرمرة » من الغرب .

(٣) نسبة الى دوقية « البندقية » التي تشكل في الوقت الحاضر ولاية ايطالية الى الشمال الشرقي من البلاد .

(٤) فرقة كان لها مركز ممتاز بين فرق الجيش العثماني ، كان يؤخذ جنودها من الشبان المسيحيين الذين كانوا يقطنون المدن المسيحية الخاضعة للاتراك ان ترسلهم سنويا لخدمة السلطان . وكان هؤلاء الشبان ينشاون منذ حداثتهم على الولاء لصاحب العرش ويدربون تدريبا عسكريا دقيقا . وظفرت فرقة الانكشارية في القرنين السابع عشر والثامن عشر بسلطة كبيرة ، فكانت تنصب السلطان وتخلعه كما تشاء . صار التجنيد لها وراثيا في القرن السابع عشر . قضى السلطان « محمود الثاني » على الانكشارية في مذبحة جرت بالاستانة (اسطنبول حاليا) عام ١٨٢٦ .

(٥) لقب اطلق على الامبراطورية العثمانية اواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين

(٦) الدرنديل والبسفور .

(٧) لقب يطلق على السلطان ، اما « الصدر العالي » فهو رئيس الوزراء .

(٨) كان واليا على « بغداد » من عام ١٨٦٩ ـ ١٨٧١ حيث قام باصلاحات كثيرة .

(٩) وكان « مدحت » هو الذي جاء بعبدالحميد الى السلطنة بدلا من « مراد الخامس » الذي تولى العرش بعد خلع « عبدالعزيز » .

(١٠) هو أخ غير شقيق للسياسي العراقي المعروف « حكمت سليمان » .

(١١) يتالف من فرقتين او اكثر .

(١٢) مدينة عثمانية كبيرة سابقا ويونانية في الوقت الحاضر .

الفصل الثالث

ابرع جاسوس فى التاريخ

كانت العاصمة اليابانية « طوكيو » في الثلاثينات من هذا القرن . واحدة من اشد عواصم العالم صرامة في مراقبة الجواسيس . ومع ذلك استطاع « رتشارد سورغا » الوكيل السوفيتي المحترف ان يمارس عملياته هناك طوال ثمانية اعوام دون ان يعرف احد امره . وهذه هي القصة الكاملة التي لا يصدقها عقل انسان : كيف استطاع التغلغل في اعلى الاوساط الدبلوماسية ونال ثقة واحترام كبار المسؤولين . وكيف تمكن في ساعاته الاخيرة من الحرية ، ان يبدل مجرى الحرب العالمية الثانية !

اظهر العضو الجديد في هيئة الصحفيين الاجانب كل ما يطلب منه باعتباره مواطنا المانيا جيدا ، وكان اول عمل قام به عند وصوله الى « طوكيو » في ايلول ١٩٣٣ ، ان قدم نفسه للسفارة الالمانية هناك .

فقد قال . وهو يبرز وثائق اعتماد لا يأتيها الشك من امامها او خلفها : « انا رتشارد سورغا ، وسأقوم بتمثيل صحيفة ــ فرانكفورتر زايتونغ ــ كمراسل في العاصمة اليابانية » .

كان « سورغا » طويل القامة ، رشيق القد ، له سحنة سمراء وسيمة وعينان زرقاوان براقتان وخدان بارزان . وعلى الرغم من انه لم يتجاوز السابعة والثلاثين ، فقد كان شكله ينم عن اتزان واضح وذكاء مفرط . اضافة الى شهادة الدكتوراه التي جعلت الاخرين يخاطبونه بلقب « هر دوكتور »(١) .

وعلى الرغم من انه كان قد قدم طلبا للحصول على عضوية الحزب ، فانه لم يكن نازيا متعصبا بأي حال من الاحوال . وبدلا من ذلك ، فقد اظهر دماثة مفرطة قوبلت بالاحترام والتقدير في جو السفارة الالمانية المتسم بالرزانة والتحفظ ، فعلى الرغم من انقضاء سبعة شهور على وصول « هتلر » الى السلطة(٢) فما زال شعور البرود تجاه اعضاء الحزب النازي المتسمين بالفظاظة والتطرف يسود السفارة الالمانية في « طوكيو » .



رتشارد سورغا

كانت ارتباطات « سورغا » الصحفية واسعة النطاق . ذلك ان « فرانكفورتر زايتونغ » الصحيفة الكبرى التي يعمل لحسابها واحدة من آخر الجرائد الالمانية التي جرى اخضاعها للسيطرة النازية . ومع ذلك ظلت تعتبر افضل صحيفة يومية في « الرايخ الثالث »(٢) . واضافة لذلك ، تزود « سورغا » برسائل تعريف من مجلتين المانيتين مشهورتين . ونشرة مالية تصدر في « برلين » وجريدة هولندية !

وبعد ان تطلع القائم بالاعمال في السفارة الالمانية في وثائق « سورغا » اصيب بالدهشة وقال : « يبدو ان كل شيء على ما يرام » . واعادها اليه .

وخلال الشهور القليلة التالية ، انهمك « سورغا » في العمل بجد وبنجاح مرموق ، حيث كرس وقته لاثبات انه مراسل مخلص متعلق بعمله . بيد ان سلوكه المزيف تعرض لخطر محتمل ، فذات يوم التقى في نادي الصحافة الالمانية بصحفي ياباني يدعى « اريتومي متسو كادو » وسرعان ما ربط « اريتومي » نفسه مع « سورغا » عارضا عليه شتى انواع المساعدة والمشورة واصبحت صداقته مع الالماني من المتانة بحيث كان لا يتركه يوما واحدا .

سرعان ما عرف !

ومن ثم فسح « سورغا » المجال ، مرغما امام « اريتومي » للبحث عن غرفة في احد الفنادق لاقامته الدائمة وتظاهر بأنه تقبل عروض الصداقة الملحة هذه دون ابداء اي شك . ولكن ، وحتى قبل ان يبلغه مدير الفندق سرا بأن « اريتومي » كان ذات يوم جاسوسا في الجيش الياباني ، ادرك « سورغا » ان الصحفي الياباني يعمل لحساب الشرطة التي وضعته تحت المراقبة وهي عملية روتينية تطبق على جميع الاجانب في اليابان .

ولقد ابدى « اريتومي » سذاجة خارقة في مراقبة « سورغا » وقابل الالماني جهود الياباني بنفس التجاهل الذي يبديه استاذ بارع في لعبة الشطرنج ازاء صبي لا يتجاوز العاشرة من العمر ، ذلك ان « سورغا » كان جاسوسا سوفيتيا له خبرة دون حدود ، وكيلا يدخل



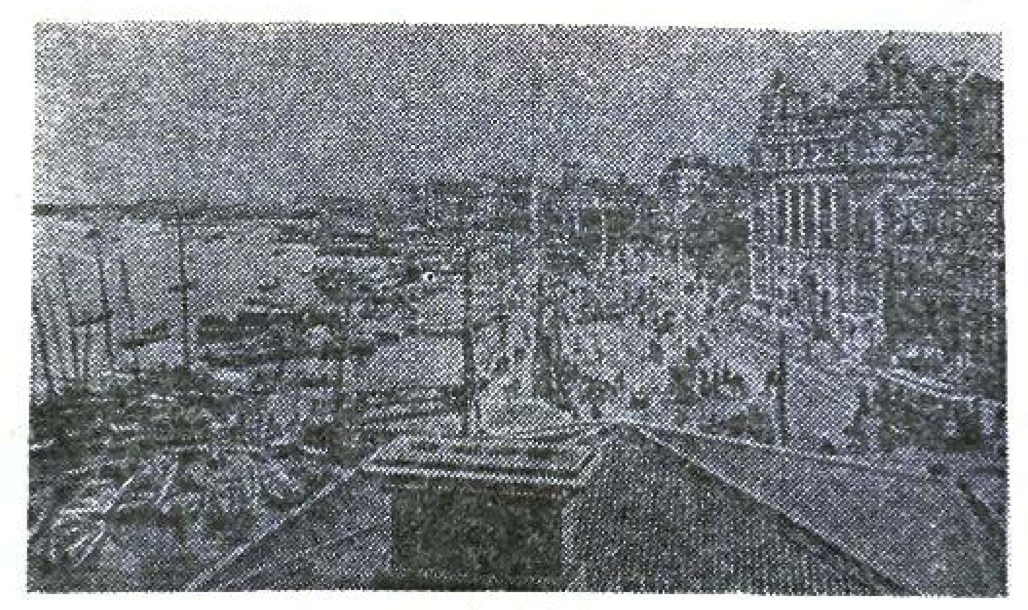
سورغا في الجيش الالماني

في عداد ابطال جهاز المخابرات التابع للجيش الروسي والمعروف باسم « اباراتشك » ، وها هو الان قد شرع ، وبنجاح مذهل ، في تنفيذ واحدة من اشد عمليات التجسس غرابة في تاريخ الجنس البشري !

صنع جاسوس

ولد « سورغا » في « روسيا القيصرية » على مقربة من مدينة « باكو » النفطية الكبيرة الواقعة على « بحر قزوين » او « الخزر » . وكانت أمه روسية ووالده مهندس الماني ، وعندما بلغ الثالثة عشرة انتقلوا الى « برلين » .

وكان ما يزال في المدرسة عندما اندلعت نار الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ فتطوع في الجيش الالماني وجرح ثلاث مرات . وفي غضون فترات الاستشفاء ، انهمك « سورغا » في التفكير في الاسباب السياسية والاقتصادية لهذا الصراع . وبعد ان انهمك في قراءة الادب اليساري . خرج من الحرب ماركسيا مؤمنا .



شنغهاي عام ١٩٣٥

وبعد ان تخلى عن خططه لدراسة الطب ، نال شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة « هامبورغ » بالمانيا وانضم الى الحزب الشيوعي وخدم في صفوفه بصفة عامل مناجم ، وجابي تبرعات ،

ومحرض على المظاهرات ومدرس وصحفي . وفي عام ١٩٢٤ طلبت منه منظمة « الكومنترن » الشيوعية العالمية مساعدتها على تأسيس مكتب للمخابرات في مقرها بموسكو . وهناك اظهر تعلقا بعمله وانضم الى الحزب الشيوعي السوفيتي واصبح مواطنا سوفيتيا بشكل سري . وبعد نقله الى الجيش الاحمر ، جرى ارساله الى ميناء « شانغهاي » الصيني حيث قام بادارة جهاز تجسس قدم خدمات ثمينة .

الرجل المناسب

وفي مطلع عام ١٩٣٣ ، استدعي الى « موسكو » وعهد اليه بمهمة اقامة شبكة تجسس في اليابان . وكانت المهمة تجريبية بشكل صرف . لان احدا لم يعرف ما اذا كانت ستنجح او يحالفها الفشل ، كما ان ترشيح « سورغا » لهذا العمل كان من ابعد الامور احتمالا لان وجوده كأجنبي في « اليابان » سيكون مسألة شاذة بشكل محتم ، ومع ذلك فان سادته السوفيت اعتبروه الرجل المناسب لذلك العمل .

كان عليه ان يذهب الى « طوكيو » بصفة صحفي الماني حيث يستطيع التوجه الى اي مكان يريد ، ويلتقي بمن يشاء ويطرح اي سؤال يخطر على باله . سيختفي عدة اسابيع ثم يبرز في اشد الاماكن غرابة دون اثارة ذرة واحدة من الشك ، ذلك ان عمله سيكون بمثابة التغطية المثالية على نشاطه التجسسي .

قوائم المراقبة

ولكن ، كان من الضروري ان يعود الى المانيا للحصول على الوثائق اللازمة والاتفاق مع الصحف التي سيقوم بتمثيلها ، بيد ان هذا سيكون مماثلا للسير على حبل نحو الكارثة ، فمنذ كانون الثاني ذلك العام تعرض الشيوعيون الى هجوم بالغ العنف في المانيا بعد وصول « هتلر » للسلطة .

كان الحظر قد فرض على نشاط الحزب الشيوعي الالماني وجرى تحطيم مؤسساته الاعلامية وتعرض اعضاؤه للمضايقة وقذف بالالوف منهم الى المعتقلات . كان « سورغا » وكيلا سريا نشطا في العديد من ارجاء المانيا ، لا يوجد شبر واحد من شارع مبلط او حانة بيرة لا يمكن

ان يتعرف عليه احد فيها . لا . بل ان اسمه قد يظهر في قوائم مراقبـه المشبوهين في مراكز الحدود الالمانيـة .

أعقـد المشـاكل

ولكن يبدو ان الحظ يحالف الجسور في بعض الاحيان ، فبعـد التزود بالاوراق المطلوبة ـ وكانت موسكو قد ابدت براعـة مطلقـة في تزويرها ـ استطاع « سورغا » في النهاية النفاذ الى « ارض الآباء »(٤) التي بدت له جديدة وغريبة اذ انتشرت البدلات العسكريـة في كل مكان منها ورفعت شعارات النازيين في شوارعها بينما فرق الموسيقى ومواكب ذوي القمصان الرمادية(٥) لاتكاد تنقطع عنها .

وبعد ان كيف نفسه على هذا الجو الجديد المحموم . حصل على جواز سفر الماني ، تزود برسائل تعريف الى مختلف الاشخـاص من ذوي النفوذ في « طوكيو » واتخذ الترتيبات لارسـال تقاريـر الى « فرانكفورتر زايتونغ » وهي من كبريات الصحف الالمانية والى عدد من الجرائد والمجلات الاخـرى .

غير ان اعقد مشكلة واجهته كانت ان ينال القبـول في صفـوف الحزب النازي . ولهذا انكب « سورغا » على مطالعة اكبر قدر ممكن من الادب النازي ، وحفظ مفرداته عن ظهر قلب ، ثم انهمك في قـراءة كتاب « كفاحي »(٦) الذي وضعه « هتلر » عندما كان في السجن واصبح دستورا للنازية ، حتى صار بمقدور « سورغا » ان يستذكر صفحات بكاملها دون تلعثم او توقف . وسرعان ما اخذ بمناقشة هذه الامـور مع افضل اعضاء الحزب ، فما كان من اصدقائه الجدد الا ان ادخلوا هذا المتطوع والذي يرجى منه الخير تحت راية الصليـب المعقـوف ، في صفوفهـم !

وعندما تقدم ، في النهاية بطلب الحصول على عضويـة الحـزب النازي ، امسك « سورغا » بانفاسه ، ذلك ان « الفستابو »(٧) كـان يقوم بتدقيق جميع الطلبات ، غير ان الحظ لعب دوره مرة اخـرى ربما لان الحزب اصيب بالارتخاء نتيجة لكثرة الطلبـات او ان وكـلا سوفيتيا في « الفستابو » قد ازال جميع الادلة التي قد تكشف امـر « سورغا » من اضبارته في اللحظة المناسبة .



ادولف هتلـر

وهكذا نال « سورغا » بطاقة العضوية المنشودة التي استلمهـا في « طوكيو » بعد ذلك بحوالي عام وفتحت امامه المزيد من الابـواب في العاصمة التي بدت مغلقة في وجه نشاطه حتى لاكثر رؤسائه تفاؤلا !

الحلقـة تتجمـع

ومنذ البداية . تغلغل « سورغا » في جميع اوساط الجالية الالمانية في « طوكيو » وتقرب دون كلل او ملل من موظفي السفارة وحضر جميع لقاءات النوادي والجمعيات الالمانية هناك . ولقد سعى بطاقة لم تعرف الاعياء لكي يفهم اليابان وجمع مكتبة مؤثرة في النفس عن تاريخ البـلاد وامورها الاقتصادية والثقافية والسياسية وبعث رسائـل صحفيـة جعلت منه ، وبسرعة مراسلا مدركا وحسن المعلومات بشكل غير مألوف .

وكانت « موسكو » قد اعطته مهلة عامين لاقامة الشبكة السرية التي ستقوم باعمال التجسس القادمة ، على الا يحاول خلالها القيام باعمال مثيرة . بدات حلقته التجسسية بثلاثة اعضاء ، وكان اول من قدم نفسه شخص الماني يدعى بأسم « بيرنهارد » وهو متخرج من مدرسة موسـكو للاتصالات اللاسلكية على ان يكون مسؤولا عن نصب وتشغيل جهاز سري للارسال والاستقبال .

ومن ثم جاء شاب يوغوسلافي يدعى « برانكو فوكيليتش » يعمـل تحت قناع كونه مصورا لمجلة فرنسية . اما الثالث ، الذي ارسـل لان « سورغا » كان بحاجة الى ياباني يتقن الانكليزية ، فهـو « مياغـي يوتوكو » وهو رسام في الثلاثين من عمره هاجر الى الولايـات المتحـدة عندما كان في السادسة عشرة واستقر في « الولايات المتحدة » وانضـم الى الحزب الشيوعي هناك .

وكانت الاتصالات تجري بحذر بالغ يفوق المألوف ، وعلـى سبيـل المثال . فعندما تم الاتصال مع « مياغي » في « كاليفورنيا » الامريكيـة جرى تزويده بوثيقة معينة لغرض التعـرف وصـدرت اليه التعليمـات بالتوجه الى « طوكيو » ومراقبة عمود الاعلانات الشخصية في صحيفـة « ادفير تايزر » اليابانية لقراءة اشارة متفق عليها ، وفي النهاية وقـع بصره عليها : « مطلوب اوكيفو » وهو نوع من الحبر اليابانـي . وردا على الاعلان التقى مع « فوكيليتش » وابرز وثيقته وقارنها مع اخـرى كانت لدى اليوغوسلافي . كان رقما الوثيقتين متطابقين وبعد التثبت من هوية احدهما الاخر ، جرى اخذ « مياغي » للقاء « سورغا » .

رســول من موسكو

كان « سورغا » قد امضى عدة شهور في « طوكيو » عندما قدم أول رسول من « موسكو » وباستخدام اللغة الانكليزية . تبـــادل الرجـلان الحديث في « الفندق الامبراطوري » عدة دقائق ، اتفقا في غضونها على



سورغا اثناء العمل (رسم انطباعي)

القيام بجولة لمشاهدة معالم المدينة في اليوم التالي .

وعندئذ فقط ، استطاع « سورغا » تسليم حصاده التجسسي . ومقابله حصل على رزمة تضم مبالغ النقود اللازمة لتلافي نفقات الحلقة عدة شهور . وكانت زيارات الرسل المتفرقة هذه السبيل الوحيد لاتصال « سورغا » الشخصي مع « موسكو » .

وفي عام ١٩٣٤ ، قام « سورغا » بخطوتين زادت من احتمالات نجاح الشبكة الى حد كبير : الاولى انه استأجر بيتا ، وبالنظر الى ان الاخير كان مهملا للغاية ، وبحاجة الى صبغ وحديقته ملأى بالاعشاب الطفيلية ، فقد كان مقرا طبيعيا لصحفي بوهيمي .

ومن ثم استخدم « الالماني » ربة بيت عجوز وطلب منها ان تحضر في وقت مبكر كل صباح وتنصرف الى حال سبيلها في الساعة الثالثة بعد الظهر وبذلك توفرت امامه ساعات ما بعد الظهر المتأخرة والمساء للزيارات السرية او النشاط الاجتماعي . كما ان حقيقة كون المنزل على مرمى حجر من مركز الشرطة المحلي وفرت غطاء ممتازا لفعاليات « سورغا » ، فأي جاسوس هذا الذي يبادر عن عمد الى استئجار منزل مجاور لمركز شرطة واتخاذه موطنا لنشاطه ؟

عضو جديد

وبناء على مبادرته الخاصة ، قام « سورغا » بتجنيد شخص ياباني آخر في الشبكة . وكان هذا « اوزاكي هوتسومي » وهو صحفي بدين ومرح كان يعمل لحسابه ايام ادارته للشبكة التجسسية في « شنغهاي » وكان « سورغا » يعرف عن « اوزاكي » انه يتصف بالذكاء والحذر ، وماركسي وان لم ينضم للحزب الشيوعي .

في مايس ١٩٣٥ ، استدعي « الالماني » الى « موسكو » فتوجه الى هناك عن طريق « نيويورك » حيث زوده رجال اتصال بجواز سفر مزيف حتى لا يظهر جوازه زيارته للاتحاد السوفيتي . وكان قد اصطحب معه قدرا كبيرا من المعلومات مما يشكل تحديا خطيرا للتعليمات التي تحظر هذه المغامرات بشكل تام .

استقبله رئيس مخابرات الجيش ، المتوقد الذهن ، بالترحاب . ونتيجة للمناقشات التي جرت بعد ذلك ، بدا متفائلا بشأن مستقبل

شبكة التجسس في « طوكيو » ، فقد تم انجاز المرحلة الافتتاحية وعلى « سورغا » الان يركز على مسالتين : هل تنوي اليابان شن هجوم على الاتحاد السوفيتي ؟ اذا كان الامر كذلك ، فما هو مدى حسن تسلحها للحرب ؟ وعدا عن ذلك ، فله الحرية المطلقة « في اختيار المشاكل التي يعمل على التوصل الى حلول لها طبقا لتطور الوضع » .

وجاء كلاوسن

والشيء الذي تحتاجه منظمة « سورغا » الان هو شخص يقوم بتشغيل جهاز اللاسلكي . ذلك ان « بيرنهارد » اثبت انه غير مرض تماما . ومن الواضح انه اصيب بالهلع من هذه المغامرة ، فتاخر في نصب تجهيزات اللاسلكي عدة شهور ، ثم بعث باقل ما يمكن من الرسائل وكان يصاب بالاضطراب كلما طلب منه القيام بعملية ارسال فأخذ باحتساء المشروب بافراط . وتعبيرا عن الاحتقار ، بادر « سورغا » الى اعادة « شحنه » للاتحاد السوفيتي !

وبدلا منه ، طلب ارسال « ماكس كلاوسن » الميكانيكي الالماني الشاب الضخم الجسم والذي لا يعرف التكلف في سلوكه وقد سبق له العمل مع « سورغا » بمدينة « شنغهاي » ووافقت « موسكو » على الطلب رغم ان « كلاوسن » كان دليلا مسببا للمشاكل .

ففي « شنغهاي » اقام علاقة مع ارملة فرنسية شابة وجميلة تدعى « انا والينوس » مؤجلا زواجه لان الاجراءات الروتينية قد تخلق بعض المتاعب غير المطلوبة . كانت « انا » لا تؤمن بالشيوعية وكان ارباب عمل « ماكس » السوفيت يقطبون جباههم تجاه اي زواج او علاقة مع الغرباء .

عناد

وفي آب ، ١٩٣٥ ، صدرت الاوامر الى « ماكس » بالعودة الى « موسكو » . ولغرض التغطية ، كان عليه أن يسافر عبر « آسيا » مع امراة يختارها الحزب من بين وكيلاته الموثوق بهن ، غير ان « ماكس » كان يعرف بان « انا » لن تغفر له قطع تلك المسافة مع امراة اخرى . وفي حالة تحد للكرملين ، اعلن انه لن يقوم بالرحلة الا بصحبة « انا » .

وكسب « ماكس » الجولة . غير ان الثمن الذي كان عليه ان يؤديه جراء عناده هو قضاء فترة في حالة تشبه النفي في منطقة مطلة على نهر « العولفا » حيث نال شهرة كبيرة لمهارته في تشغيل وادامة المكائن واجهزة الراديو .

وعندما رفع « سورغا » التماسا بأرسال «ماكس» الى اليابان . كانت مهاراته الخاصة من الاهمية الى درجة ان « موسكو » ابدت استعدادها لتجاهل خرقه للنظام عندما تحداها بشأن « انا » وهو امر غير مألوف من جانب رؤسائه . وفي اواخر تشرين الثاني ، ١٩٣٥ ، وصل « ماكس » الى « طوكيو » . كان مجرد فني ، غير ان الشبكة لم تستطع . في الواقع ، الشروع بعملها الا بعد ان استطاعت اصابعه الماهرة اقامة الاتصال مع « موسكو » .

ثـورة !

وجاء الاختبار الشامل الاول للجهاز في مطلع عام ١٩٣٦ عندما اجتاحت « طوكيو » ثورة غريبة ومجردة المعنى من حيث الظاهر ، ففي ٢٦ شباط اقتحم قرابة الف واربعمائة جندي عددا من المباني الحكومية واستولوا عليها بينما انطلقت مفارز قتل مسلحة للبحث عن مسؤولي الدولة في منازلهم .

وبقسوة بالغة ، لقي اثنان من اعضاء مجلس الوزراء مصرعهم على ايدي هؤلاء المتمردين ، ولم يستطع رئيس الوزراء نفسه النجاة بجلده الا لأن الجلادين اطلقوا النار على صهره عن طريق الخطأ فأردوه قتيلا على الفور . ومن ثم اصدر الضباط العصاة بيانا عاطفيا طويلا لم يستطع الاجانب ادراك معناه الكامل .

كان الحادث في غاية الغموض وسببا لاقصى قدر من الحيرة ، وفي الحال طلب « سورغا » من اعضاء شبكة التجسس مساعدته على تفهم ابعاده ومراميه . وكانت الحلقة تعمل بكل طاقتها عند تلك المرحلة ، فلم يعد « فوكيليتش » مجرد مصور فوتوغرافي ، بل اصبح مراسلا لوكالة الانباء الفرنسية الرسمية وهو ارتباط فتح امامه العديد من الابواب .

اما الفنان الشاب « مياغي » الذي لم يكن يعرف شيئا عن التجسس في البداية ، فقد اخذ باظهار مواهب لا يشك بها احد باعتباره وكيلا ، فبعد ان تخصص في الامور العسكرية مثل قوة وحدات الجيش الياباني

وتسليحها وروحها المعنوية وتحركاتها ، شرع في تكوين شبكة التجسس الفرعية الخاصة به .

وكان « اوزاكي » قد حصل على مركز ستراتيجي مرموق في مشروع للابحاث قامت برعايته احدى الصحف اليومية . وكانت الغاية من المشروع الحصول على الافكار حول مختلف الامور المتصلة بعلاقة « اليابان » مع « الصين » ومقاطعتها الشمالية « منشوريا » وضمت اللجنة في عضويتها اختصاصيين في الشؤون الاقتصادية للبر الاسيوي وتحليل الاوضاع السياسية هناك ، اضافة الى ممثلين عن وزارة الخارجية والجيش والبحرية ومندوبين عن رئاسة الاركان العامة وعدد كبير من ممثلي مختلف الصناعات الحكومية والخاصة . ولو ان «سورغا» نفسه هو الذي اعد التشكيلة، لما كانت ابدع من هذه تحقيقا للهدف المطلوب !

مكانة محترمة

وبينما قام هؤلاء الثلاثة بالتحقيق في « حادثة » السادس والعشرين من شباط من وجهات نظرهم الخاصة ، فقد شن « سورغا » هجومه عليها من خلال السفارة الالمانية اذ اكد بان من المهم الغوص في قعر الازمة واقترح ان يبادر هو والسفير « هربرت فون ديركسن » والملحق البحري الكابتن « بول وينيكر » والملحق العسكري المقدم « يوجين اوت » بالتحقيق في المسالة على انفراد ومن ثم يطرحون ما يتوصلون اليه .

وكانت مكانته في السفارة من الاحترام الى درجة ان الاقتراح نال القبول ، وخاصة من جانب الملحق العسكري ـ ذلك لانه كان قد اقام علاقة حميمة ووثيقة مع المقدم « اوت » الذي حصل منه على معلومات لا تقدر بثمن عن الاوضاع العسكرية لليابان بما في ذلك مختلف انواع المنشورات والكتيبات وما يكتب عن الفضائح داخل الجهاز الحربي الياباني . ولقد كانت هذه ، والوثائق الاخرى التي اعتادت السفارة الالمانية على جمعها ، من الاهمية بحيث ان « سورغا » قام بتصويرها صفحة صفحة لمصلحة « موسكو » .

ولقد برهن تحليل « مياغي » على انه صائب الى درجة تستدعي العجب ، فقد اخبر « سورغا » ان الثورة جاءت قبل الاوان ، وانها سيئة التنظيم وقليلة التسليح ولهذا فستنهار باسرع وقت . وخلال

ايام ـ اي كما تنبأ مياغي تماما ـ استطاعت افراد قوات يوثق باخلاصهم ان يحكموا سيطرتهم على الوضع .

وفي تقرير لاحق اشار « مياغي » الى ان السياسة اليابانية تجاه « الاتحاد السوفيتي » تعتمد على المجموعة التي ستصل الى قمة السلطة بعد الحادثة . ونظرا الى ان اية جهة تسيطر على الجيش تتحكم في شؤون اليابان عادة ، فان المجموعة التي في السلطة هي التي تملي السياسة الخارجية . وتنبأ « مياغي » بأن المعتدلين سيستمرون في الامساك بلجام الامور ، وفي هذه الحالة فان « الاتحاد السوفيتي » لن يجابه خطرا فوريا من « اليابان » .

اثبت وجوده

اقر « سورغا » جميع المعلومات والتقييمات التي استلمها من « اوزاكي » و « مياغي » وقام بدمجها في تقرير طويل سلمه الى السفارة الالمانية . وقام « اوت » الطيب القلب والمعجب بارسال نسخة الى احد رؤسائه في « برلين » الذي عبر عن سروره والتمس المزيد من هذا العمل الجيد ، وبذلك حصل « سورغا » على الحق في استعمال مصادر السفارة في اعمال البحث في المستقبل .

لقد اجتاز بشكل رائع الاختبار الحقيقي الاول لقوته كجاسوس سوفيتي في « طوكيو » واثبتت التقارير المكثفة التي ذهبت الى رؤسائه في « موسكو » انهم يقفون وراء رجل رابح . ومنذ ذلك الحين . اكتسبت حلقة « سورغا » الزخم العملي الذي ظل يلازمها طوال السنوات الخمس التالية .

واخيرا تزوجا

ظلت « انا واليانوس » في روسيا عدة شهور بعد توجه « ماكس كلاوسن » الى العاصمة اليابانية ، والظاهر انها كانت رهينة غير معترف بها لدى المخابرات السوفيتية . ولم يسمح لها باللحاق به الا بعد ان اقام اتصالات لاسلكية مرضية وبرهن على انه ما زال اسير قبضة المخابرات القوية . وفي النهاية ، التقت مع « ماكس » في « شنغهاي » وتزوجا هناك .

ولغرض سلامة عمليات البث في طوكيو . طلب « ماكس » بيتا من طابقين مشيد من الخشب في منطقة مزدحمة بالسكان . اما الخشب فلأن المعدن يشوش البث . واذا كان البيت من طابقين فان هذا يجعل العملية اسهل . واذا كان الشرط الاخير متوفرا فانه سيكون من الصعب على الشرطة تفتيش كل بيت حينما تكون اجهزتهم البدائية المختصة عاجزة عن تحديد نقطة الارسال .

ومن باب الاحتياط ايضا ، تقرر ان تجري جميع عمليات البث باللغة الانكليزية . فاذا استخدمت الروسية وحدث ان استطاع اليابانيون حل الشفرة . فان ذلك سيسبب الحرج للاتحاد السوفيتي . واذا تم ذلك بالالمانية فانه قد يؤدي الى اثارة الشكوك حول « سورغا » في السفارة .

اما المشروع التجاري الذي اقامه « ماكس » كغطاء ، وهو على شكل مكتب لاعادة طبع التصاميم الهندسية ، فقد حقق النجاح منذ البداية . الامر الذي يجب ان يكون قد بعث البهجة في نفس « أنا » ذات المشاعر الرأسمالية العميقة . وعندما كانا يبثان الى روسيا من منزلهما . كانت تقدم المساعدة في بعض الاحيان عن طريق مراقبة الشارع من الخارج لاشعار زوجها في حالة اقتراب أي شخص . غير ان هذه الخدمة للاتحاد السوفيتي لم تؤد بأي شكل من الاشكال الى تبديل آرائها المعادية للشيوعية !

توريط

ومن المحتمل انه نظرا لوجهات نظر « أنا » العلنية المعادية للسوفيت . فان « سورغا » قرر استخدامها كرسول ، او ربما اراد من ذلك توريطها في نشاط الشبكة حتى يضمن سكوتها . وعلى أية حال . فقد جرى ارسالها الى « شنغهاي » مع ٣٠ لفة من المايكروفلم وعادت الى « طوكيو » مع معطف جديد من الفرو الفاخر مكافأة من « ماكس » مقابل مهمتها المحفوفة بالمخاطر .

بيد ان « سورغا » لم يحاول مطلقا استخدام عشيقته كرسول ، او في اي جانب من عمليات التجسس .

كانت « ايشي هاناكو » فتاة يابانية جميلة تعمل في حانة يمتلكها احد الالمان والتي كان « سورغا » يرتادها من وقت لآخر . وذات مساء

عام ١٩٣٥ . صادف ان قامت بخدمة مائدته فاصبح مهتما بها وصار يصطحبها في النزهة او الى الاماكن العامة وسرعان ما اقام معها علاقة ظل مخلصا لها بقدر ما تسمح له طبيعته .

كان « سورغا » كريما تجاه « هاناكا » بحيث انه وفر لها منزلا وحاول ، بكل ما يملك من جهد ، منعها من معرفة الطبيعة الحقيقية لعمله .

حمى التجسس

وكانت اليابان قد وقعت ، هذه الاثناء ، في قبضة حمى التجسس بتخصيص ايام لمكافحة الجواسيس والقضاء عليهم ، بينما ارتفعت الشعارات واللافتات التحذيرية في الشوارع وعلى واجهات المتاجر . وكان الجاسوس يصور دوما في هذه على انه رجل ابيض . وعلى هذا . فاي خطأ من جانب « سورغا » و « كلاوسن » و « فوكيليتش » سيكون بمثابة عمل انتحاري . ومع ذلك لم يهتموا بالامر .

وبعد ظهر احد الايام ، اصيب « كلاوسن » بالهلع عندما اكتشف انه فقد حافظة نقوده . فاضافة الى حوالي ٢٣٠ ين(٨) ، فان الحافظة كانت تحوي اجازة وعليها صورته عدا عن فقرات عليه ان يبثها الى الاتحاد السوفيتي ومن بينها تقرير مالي عن عمليات الشبكة مدونة بخط يد « سورغا » .

وفي اليوم التالي ، اتصل « ماكس » بمركز الشرطة على امل ان احدهم قد قام بتسليم الحافظة وأن هؤلاء لم يلاحظوا المواد المشبوهة . غير ان الشرطة اجابت بأنها لا تعرف شيئا عن الامر . ولم يجد « كلاوسن » الجرأة في نفسه لرفع الخبر الى « سورغا » وامضى الايام التالية في حالة قلق لا توصف ، ولم يهدأ روعه الا بعد ان اصبح واضحا ان الشخص الذي عثر على الحافظة قد اكتفى باخذ النقود وقذف باقي المحتويات بعيدا .

اصطدام مروع

غير ان « سورغا » ذاته هو الذي كاد ان يجلب الكارثة بطريقة تنم عن الحمق ، فقد كان يحب السرعة ويهوى المخاطر ، ولهذا فعندما تم

مع وكالة المانية لبيع الدراجات البخارية في « طوكيو » ابتاع واحدة منها من طراز « زوندن » البالغ القوة . فكان ركوبها الرياضة الوحيدة التي ارتضاها لنفسه .

وحوالي منتصف ليلة ١٣ مايس ١٩١٧ . وبعد امسية كحولية خاصة . غادر « سورغا » الفندق الامبراطوري وقد اوشك على فقدان اتزانه وامتطى دراجته السوداء وانطلق بها وهي تهدر متجهة الى بيته . وفجاة برز حائط امامه ، وحدث اصطدام مروع وساد الم ممض داخل راسه . ونتيجة لاصابته بالعجز فقد امتد في الشارع بلا حول ولا قدرة الى ان استدعى المارة سيارة اسعاف .

ومن الصدف . فان جسمه لم يتعرض الى اصابات جسيمة . غير ان وجهه تلقى العبء الجسيم للاصطدام فقد ضرب احد القضبان الامامية فكه محطما عددا من اسنانه وممزقا جزءا في الداخل . ولكن عندما حاول المساعدون نقله على كرسي متحرك الى صالة العمليات لاجراء عملية طارئة . فقد رفض ذلك بشكل بات .

وبغتة اخذ بالصراخ : « كلاوسن ! كلاوسن ! كلاوسن ! » بينما احتفظ بوعيه بقوة ارادته وحدها ، ذلك ان « سورغا » رفض المعالجة الى ان يتمكن من التخلص من بعض الاوراق ذات الاهمية البالغة .

افرغ جيوبي !

كان « سورغا » يحمل عدة وثائق مدونة بالانكليزية وجاهزة للارسال الى « موسكو » وكمية من النقود الامريكية . ومن الواضح انه لا يستطيع السماح لاي طبيب ، او ممرضة او مساعد بالعثور على هذه الادلة الاجرامية . وعلى هذا فقد تحكم « سورغا » بكل ذرة من ارادته الفولاذية للتخلص من البقع السوداء التي كانت تسبح امام عينيه ، ولم يكن مستعدا للانهيار بأي حال من الاحوال .

وكان شخص ما قد بادر الى الاتصال هاتفيا مع « ماكس كلاوسن » الذي وصل المستشفى بسرعة . وبلهجة الآمر ، طلب « سورغا » من الاطباء والممرضات والمساعدين ترك الصالة واستدعى « ماكس » الى جانب سريره .

ومن خلال شفتيه المتورمتين ، خاطب « ماكس » بلهجة بطيئـة : « امرع جيوبي ! » اطاع الاخير الامر بسرعة واخذ الادلة الاجراميـة والنقود الامريكية . وهنا اطلق « سورغا » تنهيدة عميقة تنم عن الارتياح واغمض عينيه وفقد وعيه في الحال .

وخلال اسابيع الاستشفاء التاليـة ، كانت « هاناكـو » تـزور « سورغا » يوميا معبيرا عن الاخلاص . ومن المحتمل ان قلقها قد حمله على تكوين افكار اخرى بشأن شراء دراجة بخارية جديدة فقد صاحت : « ابو ناي ديس ! ابو ناي ديس ! » اي « انها خطرة ! انها خطـرة ! » ومن المحتمل انه تلقى درسا قاسيا من المخاطر الامنية التي كـادت ان تنجم عن الحادث . ومهما يكن الحال ، فعندما استعاد عافيته ، اشترى سيارة صغيرة كانت تدور به في ارجاء المدينة بامان وان كان ذلك ببطء .

وعند ذلك الحد ، اصبح مركز « سورغا » في السفارة بالغ المتانة . وهو انجاز يعود الفضل فيه الى « اوزاكي » بصورة جزئية ، فعندمـا قامت « اليابان » بغزو « الصين » لاول مـرة في تمـوز ١٩٣٧ كتـب « اوزاكي » مقالا تنبأ فيه بأن حربا طويلة الامد ستنجم عن ذلك . ولم تكن تلك الفكرة سائدة في « اليابان » في حينه . حيث اعتقدت اغلبيـة الناس ان « الصين » ستكون غنيمة سهلة المنال . وعندما استمـرت الحرب شهرا بعد شهر ، صار واضحا ، بما لا يقبـل الشـك ، ان « اوزاكي » كان على صواب فارتفعت هيبته طبقا لذلك .

لعبة الحظ

كان « سورغا » قد شارك « اوزاكي » الرأي بشـأن « حادثـة الصـين » كما كانت الحرب تعرف في « اليابان » آنـذاك . وورد في السفارة الالمانية تقرير « اوزاكي » بـأن الحـرب ستطول ، ونتيجـة لذلك ، فان شهرة « سورغا » العالية ارتفعت مرة اخرى .

ولكن الحظ كان عاملا كبيرا ايضا ، ففي مطلع عام ١٩٣٨ حصـل انقلاب شامل وان كان بعيدا عن التصديق عندما تقرر تعيين صديقـه « يوجين اوت » سفيرا بدلا من « دركسون » المريض . وكان الرجـلان قد انسجما منذ البداية ، اذ خدما في الجبهة الغربية اثناء الحرب ، كما انهما متعلقان بلعبة الشطرنج . وبموافقة « موسكو » كان « سورغـا » يزود « اوت » بالقدر الذي تسمح به مقتضيات الأمن من حـشـد

« اوزاكي » و « مياغي » مما وفر امامه نافذة على « اليابان » لم يكن يستطيع فتحها من خلال السبل الدبلوماسية والعسكرية المالوفة .

ومما لاشك فيه . ان معرفة شؤون « اليابان » والتي حصل عليها « اوت » بهذه الطريقة كانت عاملا في تعيينه سفيرا ـ وهو شرف عظيم . لأن ترفيع ملحق عسكري الى مركز دبلوماسي عال أمر غير مالوف .

جنرال يهرب !

وباعتباره سفيرا ، اخذ « اوت » بالاعتماد على « سورغا » اكثر من اي وقت مضى كما كان الملحق العسكري والبحري يطلبان مشورته بشأن المشاكل التي يواجهونها . والواقع ، فان السفير « اوت » استخدم « سورغا » كمبعوث الماني . وارسله الى « مانيلا » عاصمة الفليبين و « كانتون » المستعمرة البرتغالية و « هونغ كونغ » المستعمرة البريطانية في « الصين » بعد ان منحه صفه دبلوماسية حتى لا يتعرض الى التفتيش من قبل مسؤولي الامن والكمارك في نقاط الدخول والمغادرة .

وعندما كان « سورغا » يستشفى مما الم به نتيجة لاصطدام الدراجة البخارية ، وقع حادث جعل تغلغله في السفارة الالمانية ذا اهمية خاصة بالنسبة للاتحاد السوفيتي . والحادث هو هروب الجنرال « لوشوكوف » الذي ترك موقعه واطلق ساقيه عبر حدود بلاده مع « منشوريا » الصينية التي احتلها جيش « كوانتونغ » الياباني فالتقط الاخير .

ومن الطبيعي . ان يشعر اليابانيون بالحبور ازاء هذا الصيد البارز وغير المتوقع ، فنقلوه من فوره الى « طوكيو » لاجراء استجواب شامل . وكانت الاسرار التي كشف النقاب عنها من الاهمية بحيث ان السفارة الالمانية ، التي ظلت تحصل على المعلومات المتعلقة بهذا الصدد من هيئة الاركان اليابانية العامة ، اقترحت على « برلين » ارسال بعثة خاصة لاستجواب « لوشكوف » حول القضايا ذات الصلة بالمصالح الالمانية . فوافقت المخابرات على ذلك .

توجه « سورغا » بالسؤال الى سادته السوفيت : هل تريدون الاطلاع على تقرير البعثة عن جنرالنا ؟ وجاء الرد بلهجة التأكيد

الشديد : على الشبكة ان تبذل اقصى الجهود للحصول عليه !

اعاد « سورغا » الاتصال مع « موسكو » وقال : « سيكون ذلك صعبا جدا » . مشيرا الى التعقيدات التي تصاحب عمله . والواقع فان المسألة لم تكن كذلك ، فعندما اعدت البعثة الخاصة تقريرا من مئات الصفحات . استلمت السفارة نسخة منه اعطتها الى « الالماني » في الحال .

وسدت الثغرة

كان نصف التقرير يستحق التصوير لحساب « موسكو » ولقد قدم « سورغا » خدمة بارزة للاتحاد السوفيتي عندما بعث على الفور ، وعن طريق اللاسلكي . بتفاصيل دقيقة وحرفية عما وصل الى العدو المحتمل . وفوق كل شيء ، فان قول التقرير ان « لوشكوف » قد فشا سر الشفرة العسكرية كان انجازا لا يقدر بثمن ، فقد اعطى ذلك رؤساء « سورغا » فرصة لتبديل الشفرة وسد ثغرة في جهاز مخابراتهم في الشرق الاقصى .

وعندما اصبح الامير « كونوي فوميمارا » رئيسا للوزراء اواسط عام ١٩٣٧ ، استفادت حلقة « سورغا » من ذلك الى حد كبير . فقد كان « مياغي » الصديق الصدوق لسكرتير وزير الخارجية « كونوي » فقام مجلس الوزراء بتعيين « اوزاكي » مستشارا في الشؤون الصينية .

واضافة لما سبق ، فقد اصبح الاخير عضوا في « مجلس طعام الفطور » المشهور المعروف بأسم « اساميشي كاي » وهو مجمع من رجال بارزين على شكل « مجلس وزراء مطبخ » استشاري لرئيس الوزراء . وكانوا يتناولون طعام الفطور سوية مرتين في الشهر لبحث الامور السياسية السائدة . ومن الطبيعي انهم وفروا انباء قيمة على اسماع « اوزاكي » المفتوحة برهافة .

وادت هذه الاتصالات والعلاقات الى تمكين « سورغا » من تزويد « موسكو » بتقديرات عن انتاج « اليابان » الزراعي والطعام المتوفر لديها من صيد الاسماك وامكانيات الصناعات الحربية وغير ذلك كثير ، بما فيه تنبؤات دقيقة عن نواياها السياسية مما جعل « موسكو »

واحدة من اكثر عواصم دول العالم معرفة بشؤون الشرق الاقصى .

وبعد البقاء ١٨ شهرا في السلطة ، سقط مجلس الوزراء ، غير ان « اوزاكي » ظل عضوا في « مجموعة طعام الفطور » وشغل مركزا لدى قسم التحريات التابع لسكة حديد جنوب منشوريا . وكان هذا المركز اكثر ستراتيجية من وظيفته كمستشار لمجلس الوزراء ، ذلك ان سكة الحديد المذكورة مرتبطة بصورة وثيقة للغاية مع جيش « كوانتونغ » .

كنز

واضافة لما سبق . فان منصب « اوزاكي » في قسم التحريات قد فسح له المجال للحصول على معلومات تتعلق بالامور العسكرية والاقتصادية وبالسياسة الخارجية وتحركات جيش « كوانتونغ » وحتى عن الحياة الخاصة للعسكريين اليابانيين ، اي انه نال كنزا . والواقع ، فان « اوزاكي » حصل على كرسي في الصف الامامي بحيث انه سيعرف ، مقدما ، اية حركة رئيسة قد تزمع « اليابان » القيام بها ضد « الاتحاد السوفيتي » .

وفي ايلول ١٩٣٩ ، عندما اقحم « هتلر » اوربا في الحرب بمهاجمته « بولندا » ازداد الوضع داخل السفارة الالمانية توترا بصورة محسوسة . وكان السفير « اوت » يحث « سورغا » على ان يصبح عضوا رسميا في هيئة موظفيه . وقد استطاع الاخير ان يثنيه عن عزمه . بيد ان وزارة الخارجية الالمانية قد دعمت التماس السفير معطية الوعد « لسورغا » بأن يشغل مركز الملحق الصحفي . وكان هذا امرا غير مرغوب فيه من جانب « سورغا » لان وظيفة رسمية تتطلب العمل ساعات مستمرة ستسبب قيودا خطيرة على اسلوبه كجاسوس وقد تؤدي الى اجراء تدقيق امني صارم بشأن ماضيه مما سيتحول الى كارثة بالتأكيد .

تحت المراقبة

وعندما رفض « سورغا » الاقتراح ، ابدى « اوت » امارات الغضب عليه في النهاية . ولغرض ارضاء صديقه الحانق والمحافظة على علاقته معه والتي لا تقدر بثمن ، توصل « سورغا » الى حل وسط .

انه ما زال يرفض ان يتحول الى مستخدم لدى الحكومة لكنه بادر الى التوقيع على اتفاق رسمي مع « اوت » يقضي بالمحافظة باستمرار على التعاون الخاص مع السفير » وكذلك الوعد بأن « مختلف المعلومات ستظل في حالة تدفق على السفارة » .

وفي تشرين الاول ١٩٣٩ ، بدات شرطة الافكار السرية اليابانية المعروفة باسم « توكو » بملاحقة « سورغا » بهدوء ، ولا يعود السبب الى انهم ابدوا شكا بشأنه في امر محدد . ولكن كانت هناك ، من وجهة نظرهم ، ثلاثة اسباب بديعة لمراقبته : كان اجنبيا ، وصحفيا ويزور السفارة الالمانية بكثرة .

كان الاجانب يحملون افكارا غير يابانية ، وقد يتسببون في افساد شبيبة اليابان ، ثم ان الصحفيين يتدخلون في امور لا علاقة لهم بها ... ومن يعرف اي نوع من الدسائس والمؤامرات تلك التي تحاك في الظلام خلف ابواب السفارة الثقيلة ؟.

كان الوكيل الذي عهد اليه بأمر مراقبة « الالماني » شابا في الثامنة والعشرين من العمر يدعى « سايتو هاروتسوغا » وهو رجل وسيم يتصف بالفطنة والذكاء ويشعر بالفخر الهائل بمركزه باعتباره وكيلا لدى « توكو » . ولما كان يتصف ايضا بالطموح وبرودة الاعصاب ، فانه لم يندفع في مسألة مراقبة « سورغا » بل قام ، ببطء وهدوء ، بوضع جدول عن عادات الرجل وروتينه . وقد بلغ من شدة حذره ، ان عمله هذا لم يتجاوز ساعة او ساعتين في كل مرة على الاطلاق ، بيد ان ذلك لم يؤد الى اية نتيجة .

في ٣ آذار ١٩٤٠ ، بعثت « موسكو » الرسالة التالية : « هل ان الفرق المرقمة ١٠٩ و١١٠ و١١٤ و١٠٨ موجودة حقا بين تشكيلات الجيش الياباني ؟ اذا كان ذلك بالايجاب ، حددوا مواقعها » .

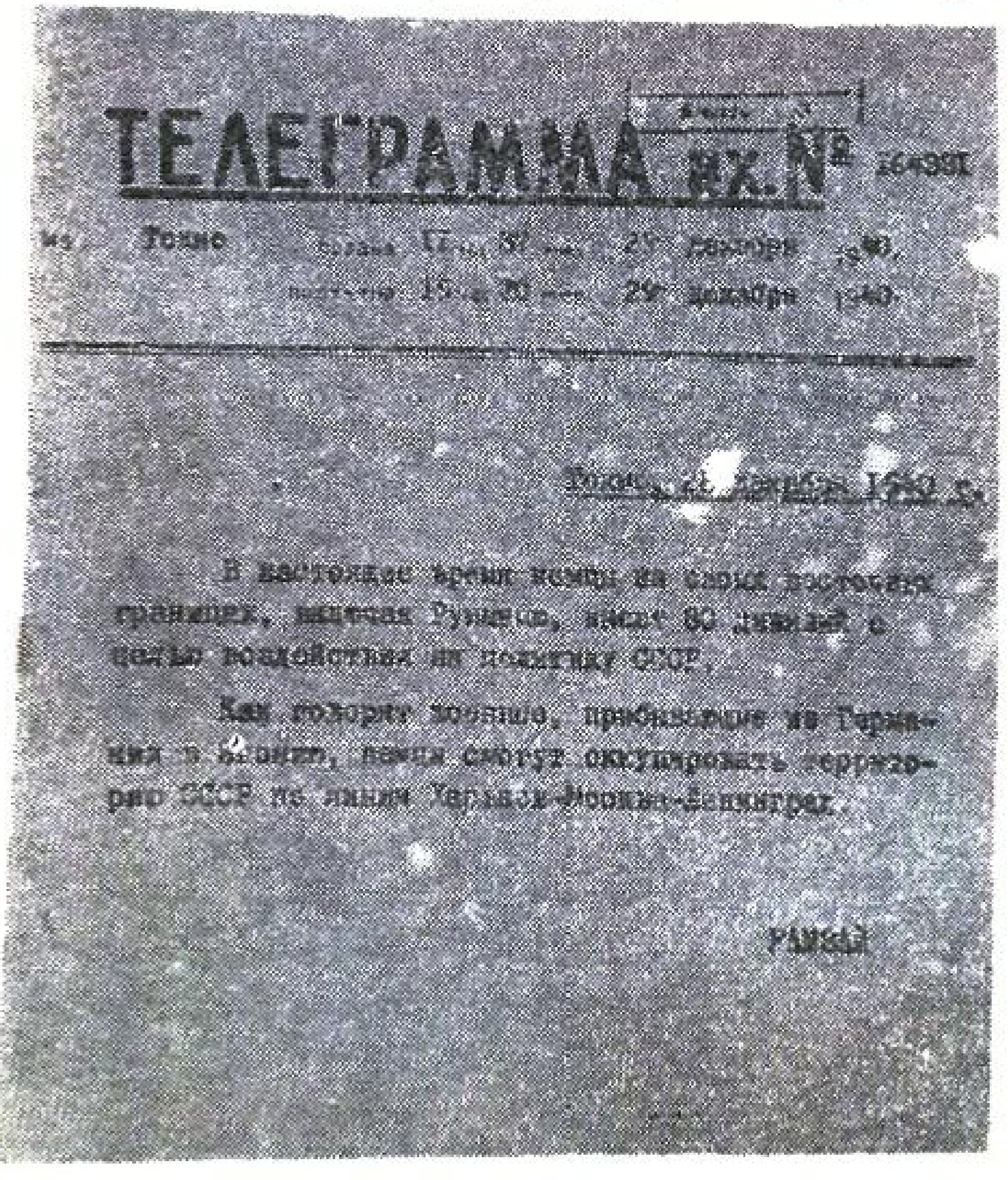
وفي ٢ مايس ، جاءت هذه البرقية : « من الضروري ان نحصل على معلومات تفصيلية بشأن معامل صنع المدافع المضادة للطائرات . يرجى تزويدنا ايضا بتقديركم للانتاج الاجمالي من المدافع لعام ١٩٣٩ » .

في ظل الخطر

كانت مثل هذه الطلبات كثيرا ما تأتي من العاصمة السوفيتية ، ولهذا فان عملية بث ردود « سورغا » عليها ابقت « كلاوسن » في

حالة انشغال دائم . وخلال عام ١٩٣٩ وحده ، استخدم جهاز اللاسلكي خمسين مرة ، اي قرابة مرة واحدة في الاسبوع . وفي بعض الاحيان كان البث يستغرق من ساعتين الى ثلاث ساعات . ونظرا الى انه كان ينبغي تحويل كل رسالة الى شفرة بدقة وعناية . فان ذلك ادى الى زيادة توتر اعصابه .

لقد عاش « كلاوسن » في ظل الرعب من خطر الاكتشاف وكان الخوف ملازما له عند طاولة الشفرة وامام جهاز اللاسلكي . كان الهلع



ТЕЛЕГРАММА вх. №

Токио

РАМЗАЙ

برقية بالشفرة بعد ان حلت وهي بتاريخ ٢٨ كانون الاول ١٩٤٠. وتقول ان بمقدور المانيا حشد ثمانين فرقة على الحدود مع الاتحاد السوفيتي

ينتابه عند كل ضربة على الباب ، وعند كل مره يقرع فيها جرس الهاتف .

والواقع ، فان اسبوعا واحدا من هذا الروتين الممزق للاعصاب كان سيدفع باي إنسان اعتيادي الى حافة الجنون ، لقد عاش « ماكس » هذا الواقع طوال اربعة سنوات ، ولكنه تعرض في ربيع عام ١٩٤٠ الى ازمة قلبية بلغت من الشدة بحيث طلب منه الطبيب ان يلازم الفراش اربعة شهور .

كان بمقدور « ماكس » ترك مشروعه الخاص بطبع التصاميم الهندسية جانبا ، بضعة اسابيع ، لان العمل فيه كان يجري على ما يرام على يد مستخدمين يابانيين يركن اليهم ، بيد ان « سورغا » اوضح له ان من واجبه الاستمرار في تشغيل الجهاز . ونتيجة لذلك ، فان « كلاوسن » استنبط على الفور سريرا مائلا يتصور الاخرون ان الغاية منه مساعدته على القراءة في الفراش ، بينما كان الهدف الحقيقي تدوين الرسائل بالشفرة ، وحل الشفرة القادمة ، والاستمرار في عمليات الارسال والاستقبال كالعادة !

وبعد ان مكث « ماكس » في الفراش شبه عاجز مدة شهرين ، رق قلب « سورغا » الى درجة انه قال لموسكو : « لقد تعرض كلاوسن الى ازمة قلبية . انه يقوم بتشغيل جهاز اللاسلكي وهو متمدد فوق سريره » .

لم يعد شيوعيا !

وبعد ذلك بيومين ، دون «ماكس» الرسالة القادمة التالية : « يقال بأن الجيش الياباني مشغول بتعبئة عامة لقوات الاحتياط . قوموا بالتحريات واوضحوا لنا سبب ذلك » .

كانت الاشاعة زائفة ، ولم تكن هناك تعبئة عامة ، بيد ان « ماكس » لم يفته تجاهل رؤسائه الثلجي لمسألة مرضه .

وبمرور الوقت ، شفي من ازمته القلبية ، ولكن حماسه للشيوعية اخذ بالتذبذب ، ففي اقتصاد الحرب الياباني كان البناء يجري على قدم وساق ، وبالتالي برزت الحاجة الى التصاميم الهندسية فأزدهرت تجارة « ماكس » ومن الصعب على المرء ان يظل ثوريا وهو

يسوق سيارة من طراز « مرسيدس ــ بنز » وتغرق زوجته في معاطف الفراء . وعلى الرغم من ان «انا» كانت تقوم بخدمة الشبكة ، الا انها فعلت ذلك على مضض .

القشة الاخيرة

ثم ، وفي خريف ١٩٤٠ ، قررت المخابرات السوفيتية فرض نظام التقشف على عملياتها في العاصمة اليابانية . فقالت رسالتها بهذا الشأن : « بناء على ظروف الحرب ، فقد اصبح من الصعب الحصول على النقد الاجنبي . ولهذا فأن المدفوعات ستنخفض الى الفي ين في الشهر ، اما بقية المال المطلوب لنفقات الشبكة ، فيجب ان يؤخذ من مشروع كلاوسن التجاري » .

وكانت هذه بمثابة القشة الاخيرة(٩) بالنسبة الى «ماكس» صحيح ان « الاتحاد السوفيتي » قدم المال لمشروعه هذا ، الا ان اسلوبه الاداري المتسم بالذكاء وعمله الشاق هو الذي حقق النجاح .

وبفعل هذه المشاعر ، هتف حانقا بوجه « سورغا » الذي غمرته الدهشة : «انني لا اقبل الانصياع لهذه التعليمات» وبالفعل نفذ ما يريد وزاد عليه انه خصص ٢٠.٠٠٠ ين لتوسيع مشروعه .
وعدا عن هذا ، فانه اخذ ، منذ ذلك الحين، بعدم بث كل المعلومات التي يدفعها اليه « سورغا » . وبدلا من ذلك ، شرع باعادة تدوينها حتى يتجنب التعرض الى الخطر اطول فترة ممكنة .

امكانية بعيدة

وفي مطلع عام ١٩٤١ ، اخذ الخطر بتهديد « سورغا » في ذات المكان الذي شعر بأنه اكثر امنا بالنسبة له : السفارة الالمانية . فقد وصلت شكاوى حول ماضيه المشكوك فيه الى اسماع «ويلهلم ريتفين» رئيس قسم الصحافة في الرايخ الذي كان « سورغا » يزوده بتقارير مهيئة عن اليابان . وكانت هذه التقارير لا غنى عنها بالنسبة الى « ريتفين » فلم يبدو رغبة في قطع مثل هذا المصدر الثمين على يد وكلاء «الغستابو» الراغبين في ذلك ، ولهذا امر باجراء تحقيق دقيق عن « سورغا » .

تمخض التحقيق عن نتائج غامضة ، وعلى الرغم من انه لم يكشف النقاب عن دليل حقيقي على انه عميل سوفيتي الا انه اظهر ان هنالك امكانية وان كانت بعيدة . ومع ذلك شعر « ريتغين » بان مراسلا في قيمة « سورغا » يجب ان يستمر في العمل بشكل من الاشكال ، وهكذا تم الاتفاق على ذلك بشرط وضعه تحت المراقبة .

وفي مايس ١٩٤١ ، وعندما اصبح « جوزيف ميسنجر » الكولونيل في « الفستابو » ضابط الامن في السفارة الالمانية ، كانت لديه تعليمات بأن « يبدي اهتمامه » بالهر « سورغا » ويرفع تقريرا عن نتائج ذلك الى « برلين » .

وعلى الرغم من ان السفير « اوت » لم يبد اي ميل مطلقا تجاه ضابط الامن الجديد الا ان « سورغا » استطاع اجتذابه وسرعان ما اصبحا صديقين حميمين وان كان لا يربط بينهما اي رابط . وهكذا بادر « ميسنجر » الى رفع شهادة براءة ذمة عنه الى العاصمة الالمانية !

سر رهيب

وعند هذه المرحلة ، اشتدت سرعة تعاقب الاحداث الدولية بشكل خطير . وذات يوم ، وصل رسول في غاية الاهمية من « برلين » للقيام بمهمة دراسة مدى امكانية مساهمة اليابان في حرب ضد الاتحاد السوفيتي . وكان المبعوث يحمل رسالة تعريف الى « سورغا » من السفير السابق « ديركسن » .

ونتيجة لكرم الضيافة البالغ من جانب « سورغا » أسر المبعوث له بأن اشتعال نار الحرب الالمانية ــ الروسية قد اصبح حقيقة مقررة بالفعل ، وان الالمان يطمحون الى تحقيق ثلاثة اهداف هي :
اولا : احتلال منطقة اوكرانيا الغنية بالغلال .

ثانيا : الحصول على مليون اسير على الاقل للعمل في صناعة المانيا وزراعتها .

ثالثا : القضاء على الخطر القائم على الحدود الشرقية لالمانيا .

واضاف الرسول : ان هتلر يشعر بانه اذا ارادت المانيا ان تحارب روسيا يوما ما ، فهذا هو افضل وقت .

ونتيجة لحصول « سورغا » على هذا النبأ او ذاك من المصادر الاخرى . اكتملت الصورة ، فقد كشف احد الملحقين العسكريين . عن سذاجة . النقاب عن هذه التعليمات التي تعتبر في غاية السرية .

« ان الحرب الالمانية ـ الروسية ستبدأ في ٢٠ حزيران . وقد يتاخر ذلك بضعة ايام . ولكن الاستعدادات لهذا الفرض قد انجزت . وعلى الحدود الشرقية لالمانيا تمركز ما يتراوح بين ١٧٠ الى ١٩٠ فرقة المانيه وجميعها مجهزة بالدبابات او انها ميكانيكية . سيكون الهجوم على الجبهه باسرها وسيتم توجيه زخمه الرئيس نحو موسكو ولينينغراد ثم باتجاه اوكرانيا في وقت لاحق . ولغرض الشروع في الحرب ، فان الالمان لن يوجهوا انذارا نهائيا بل سيعلنون الحرب حال بدء المعركة . وخلال شهرين قد ينهار الجيش الروسي وتسقط الحكومة ، وعندما يحل الشتاء ستفتح سكة حديد سيبيريا(١٠) ويتحقق الاتصال باليابان » .

ياللصعاليك !

كانت هذه الانباء مثيرة حقا ، ذلك ان هتلر الذي سبق له التوقيع على ميثاق عدم اعتداء مع ستالين عام ١٩٣٩ يستعد الان ، وبشكل لم يتوقعه حتى الاخير نفسه ، لجر البساط من تحت قدمي الزعيم السوفيتي .

سارع « سورغا » الى تسليم المعلومات الى « كلاوسن » وأمره بارسالها في الحال ثم انتظر ، في حالة من القلق الشديد ، وصول ما يشير الى ان الاتحاد السوفيتي قد استفاد من هذا التحذير الذي جاء في الوقت المناسب واتخذ العدة لمجابهة الموقف البالغ الخطورة .

لم يات شيء ـ ولم يصل اقرار ينم عن الاعتراف بالجميل . ولا حتى طلب الحصول على مزيد من التفاصيل ، فقد اقتصر رد الفعل الوحيد على برقية موجزة تقول : « نشك في صحة معلوماتكم » .

وصادف ان كان « سورغا » مع « كلاوسن » عندما وصلت هذه البرقية المتسمة بالفظاظة والجفاف ، فسيطرت عليه حالة من الغضب الشديد وقفز من مجلسه واخذ بالسير جيئة وذهابا في الصالة وجسمه يرتعد من الحزن والاسى وامسك راسه بين يديه وهو يصيح : « لماذا لا يصدقون كلامي ؟ هؤلاء الصعاليك . كيف يتجاهلون رسالتنا ؟ » .



التوقيع على ميثاق عدم الاعتداء بين الاتحاد السوفيتي والمانيا ، ويبدو « ستالين » في الوسط وامامه وزير خارجيته « مولوتوف » وعن يمينه وزير خارجية المانيا « ريبنتروب »

وقـوع الكارثـة

وبينما كان « سورغا » ينتظر الضربة الالمانية الصاعقـة وهـو في حالة عجز ازاء ذلك ، اقبل على احتساء الشراب بكثرة وانتابته حالات من البكاء وحتى اليأس الاسود . ومن الواضح انه لا توجد طريقـة اخرى لتحذير وطنه الغافل بما سيحدث ، وعندما وقفت الكارثـة ثبت بما لا يقبل الشك أن معلوماته كانت صحيحة ، فقد شن هتلـر هجومه في ٢٢ حزيران وبنجاح مذهل بحيث بدا ان وجود الاتحـاد السوفيتي بالذات قد تعرض الى امكانية الاقتلاع .

وفي الحال سيطر القلق على السوفيت : هل ان اليابان تنوي استغلال محنة روسيا اليائسة هذه وطعنها في الظهر في سيبيريا ؟

وفي حالة من الهلع ، بعثت « موسكو » الرسالة التالية : « فيما يتعلق بالحرب الالمانية ـ السوفيتية ، فما القرار الذي اتخذته اليابان بشأن بلادنا ؟ هل هناك تحركات للقوات على حدودنا ؟ »

الشمس الصاعدة

لم تكن السفارة الالمانية قادرة على تقديم اي جواب ، فعلى الرغم من ان اليابان والمانيا كانتا حليفتين من الناحية الاسمية ، فمن الواضح ان طوكيو لا تريد اخراج الكستناء الالمانية من النار . وعندما حاول السفير اقناع الحكومة اليابانية بأن الوقت قد حان لمساعدة حليفتها بشن هجوم على الاتحاد السوفيتي من الشرق ، فقد تملص اليابانيون من الاجابة مما اثار العجب . وبلهجة مهذبة لا يسبر غورها رفضوا تقديم اي التزام . وفي الاونة الاخيرة كانت اليابان قد عقدت ميثاق حياد مع الاتحاد السوفيتي مما تسبب في اثارة حنق الالمان ، فهل تشعر بأنها ملزمة بالميثاق ؟ لم يستطع السفير الاجابة .

ولم يتمكن « اوزاكي » نفسه ان يكتشف موقف اليابان في الحال ، على الرغم من ان « مجموعة طعام الفطور » اخذت الان بالاجتماع مرة كل اسبوع . وفي الجلسة الاولى ، ناقشت المجموعة التحول الجديد في سير الاحداث بمشاعر متشابكة .

وبعد أن تدارسوا تقدم النازيين وهم في حالة انبهار وذهول ، ابدى بعض الاعضاء الرأي من انه لن يتوقف حتى ترفرف راية الصليب المعقوف فوق « فلاديفستك » . ولم يكن هذا الاحتمال مبعثا للفرح والابتهاج ، فالالمان حلفاء رائعون طالما ظلوا على مسافة محيط وقارة عن اليابان !

ولكن ، اليست هذه فرصة من السماء لضرب الروس في « سيبيريا » والمطالبة بقطعة من الارض للشمس الصاعدة(١١) وربما التخلص من الخطر الروسي مرة والى الابد ؟ كان الاجماع بالنفي ، فحتى اذا انضمت اليابان الى المانيا في هذه الحرب ، فانه سيكون من الصعب جدا الحاق الهزيمة بالاتحاد السوفيتي . اما بشأن الارض ، فان

Вучесть

ТЕЛЕГРАММА вх.№ 89084

из	Токио	11	40	1	июня	41
		17	45	1	июня	41

Токио, 30 мая 1941 г.

Берлин информировал своего посла в Японии ОТТ, что немецкое наступление против СССР начнется во второй половине июня.

Наиболее сильный удар будет нанесен левым флангом германской армии.

ОТТ совершенно уверен, что война скоро начнется, поэтому он потребовал от военного атташе не посылать никаких важных сообщений через территорию СССР.

Технический департамент германских воздушных сил в Токио получил указание возвратиться в Германию.

РАМЗАЙ

البرقية الصادرة من سورغا بتاريخ ٣٠ مايس ١٩٤١ وفحواها ان المانيا ستشن الحرب على الاتحاد السوفيتي في النصف الثاني من حزيران ذلك العام

الروس وحدهم قادرون على البقاء والعيش في ظروف « سيبريا » الشديدة البرودة بالنسبة لليابانيين .

نحو الجنوب

ومع كل ذلك ، لم يكن هناك انكار لحقيقة ان « اليابان » قد شرعت توا بتعبئة عامة ، ومن المحتمل ان يكون ذلك من قبيل الاستعداد

للهجوم على روسيا . وبدا واضحا ان العسكريين ، الذين يتمتعون بالسلطة النهائية ، كانوا يميلون الى الغزو . وفي ذات الوقت فان فئة اخرى « قام اوزاكي بتقديم الدعم الحار لها في مناقشات مجموعة طعام الفطور » كانت تميل الى تجاهل « روسيا » والتوسع نحو الجنوب . فهناك ، وفي الاراضي الخضراء لكل من « الصين » و « الملايو » و « جزر الهند ـ الشرقية الهولندية »(١٢) و « الفليبين » يتوفر النفط والمواد الخام الاخرى مما يساعد على قيام امبراطورية وكذلك ايجاد مجال امام ملايين اليابانيين للهجرة الى بلدان السماء الصافية .

ولم يكن بمقدور « سورغا » اشعار « موسكو » عن نوايا اليابان طالما كان اليابانيون انفسهم لم يتخذوا اي قرار بهذا الشأن . ومن الواضح انهم على غير دراية تامة بالطريق الذي ينبغي عليهم القفز اليه .

اضطراب عصبي

وعلى اية حال ، فان الحظ قد شرع بالابتعاد عن اعضاء شبكة « سورغا » ، فطوال عدة اعوام كانوا يعملون دون الوقوع في اخطاء كبيرة . اما الان فيبدو انهم اصبحوا في سباق مع الزمن . ومن اغرب الامور ان « مياغي » الذي اصيب بمرض السل في هذه الاثناء وظهرت عليه علائم الكآبة قد ادرك هذه الحقيقة قبل غيره .

اما « كلاوسين » فقد اصيب باضطراب عصبي هو الآخر ومما ادى الى ذلك وقوع سلسلة من الحوادث التي توقف شعر الرأس ، فذات يوم . قدم احد وكلاء الامن الى العمارة بينما كان « ماكس » يقوم بمهمة البث . واستطاع الاخير ، على عجل قطع التيار الكهربائي عن الغرفة العليا واغلاق بابها ، ثم قام باستقبال ضيفه غير المتوقع في الصالة الارضية حيث تبين ، لحسن الحظ ، ان الرجل كان يقوم بجولة روتينية اعتيادية . وفي مناسبة اخرى ، كان « كلاوسن » قد شرع توا بارسال ما لديه من معلومات عندما ظهر عامل يقوم بعملية اصلاح الى جانب شباك غرفة بيته العليا !

فضيحة نسائية

ومن المحتمل ان هذه الاحداث قد وقعت من قبيل الصدفة ، بيد انه لم يعد هناك اي قدر من الشك في الاهتمام الذي ابداه « ايوناما

شيغيرو » وكيل « توكو » . فقد كان « ايوناما » يرتاد الشقة من حين الى اخر عندما يكون « ماكس » في الخارج لتوجيه اسئلة الى الخادمة التي كانت ترفع امر الزيارات بامانة لسيدها .

والغريب ، أن اهتمام « ايوناما » بالالماني « ماكس » قد جـاء عندما كان الوكيل يقوم باجراء تحقيق مع جار الاخير المباشر ، وهـو ضابط فرنسي تورط في نوع من « الفضيحة النسائية » . وكان رجل الشرطة الشاب قد شرع باستجواب خادمة « كلاوسن » بأمل الحصول على معلومات عن الرجل الفرنسي الفاضل . وقد اعتاد على الاصغاء لكل ما تقوله حول سيدها وسيدتها ، بيد انه لم يحاول ايقافها عنـد حدها لئلا يؤدي ذلك الى الاساءة الى شعورها مما قد يدفعهـا الـى السـكوت .

ومن ثم ، وذات يوم ، رددت الخادمة بعض العبارات التي اثـارت شكوك الضابط ، فقد قالت : « ان سيدي ينهض في منتصف الليـل ويقوم بتشغيل جهاز مزود بازرار براقة » . ونظرا الى ان « ايوناما » نفسه كان مولعا باجهزة الارسال ، فقد ادرك حقيقة الوضـع وتذكـر فجأة ان احد مسؤولي الاتصالات اللاسلكية قد وجه له قبـل ايـام سؤالا عما اذا كان يعرف شخصا ما في المنطقة يقوم ببث رسائل غير مشروعة بالموجة القصيرة . ومنذ تلك اللحظـة لـم يتوقف اهتمـام الياباني مطلقا بنشاط « كلاوسن » الـذي وجد نفسه ملزمـا بنقـل الجهاز ، خلسة الى شقة اليوغوسلافي « فوكيليتش » وذلك في سـاعـة متأخرة من احـدى الليالي .

صبر غير محدود

بيد ان مساعد « اوزاكي » في سكة حديد « منشوريا الجنوبية » هو الذي دل « توكو » عن غير قصد الى شبكة « سورغا » ، فبعـد ان القي القبض عليه بتهمة الشيوعية تحول الى مخبر . ومن ثم وجهت لـه « توكو » سؤالا عما اذا كان على معرفة بأي من اعضاء الحـزب الشيوعي بين اليابانيين الذين عادوا ادراجهم الى بلادهم من الولايـات المتحـدة مؤخـرا .

وهنا تذكر الرجل الشاب ان لخادمته عمة جاءت الى اليابان مـن امريكا قبل سنوات قليلة ، وان الاخيرة كانت تتباهى من وقت لاخـر

بأنها شيوعية . ونظرا لاعتقاده بـأن الرفيقة العجوز ليست بذلك القدر من الاهمية الذي قد يؤدي الى الحاق ضرر بالقضية ، فلهذا اعطى اسمها لسلطات الأمـن !

وكانت المراة وهي « كيتابياشي تومو » تقوم بادارة مدرسة لتعليم فن خياطة الازياء النسائية في طوكيو . وبعد ذلك بحوالي شهر . قدم شابان يرتديان الملابس الرسمية الانيقة وينتميان الى « القسم الاجنبي » التابع الى « توكو » لزيارتها وقد امسكا بدفتري استجواب : هل يستطيعان توجيه بعض الاسئلة الروتينية ؟

ولم تكن لدى « توكو » اية نية لالقاء القبض عليها في حينه . ذلك ان الامساك بهذه السمكة الصغيرة لن يتطلب غير قليل من الوقت ، ولو ارادوا ذلك ، فانهم يعرفون محل اقامتها ، وعلى الرغم من انهم ظلوا على مراقبتهم لها بعد استجوابها الروتيني ، الا انه لم تتكون لديهم اية فكرة عن مدى اقترابهم من شبكة « سورغا » . بيد ان اساليب « توكو » التي اتسمت بالصبر من غير حدود اوشكت على اعطاء ثمارها ، اذ تبين ان السيد والسيدة « تومو » كانا يقومان باستقبال مستأجرين في دارهما الواقعة في « لوس انجيلوس » الامريكية عام ١٩٣٢ وان من بين النزلاء فنان شاب يدعى « مياغي يوتوكو » .

غيـوم العاصفة

كان « سورغا » منهمكا للغاية في محاولة التوصـل الى اجابة للسؤال الذي كانت « موسكو » قد وجهته اليه : ما الـذي تنـوي اليابان عمله ؟ لقد رفع تقريرا عن التعبئة العامة وارسل كل ما لديه من معلومات حول القوات التي ارسلت الى حدود سيبيريا . وعندما علم « اوزاكي » بالقرار الذي تم التوصل اليه في مؤتمر امبراطـوري عقد بتاريخ ٢ تموز ١٩٤١ ، رفع « سورغا » تقريرا بذلك ايضا . لقد صار واضحا ان اليابان ستتحرك جنوبا بيد ان من المحتمل انها ستوجه ضربة الى الاتحاد السوفيتي اذا تطلبت الامور ذلك .

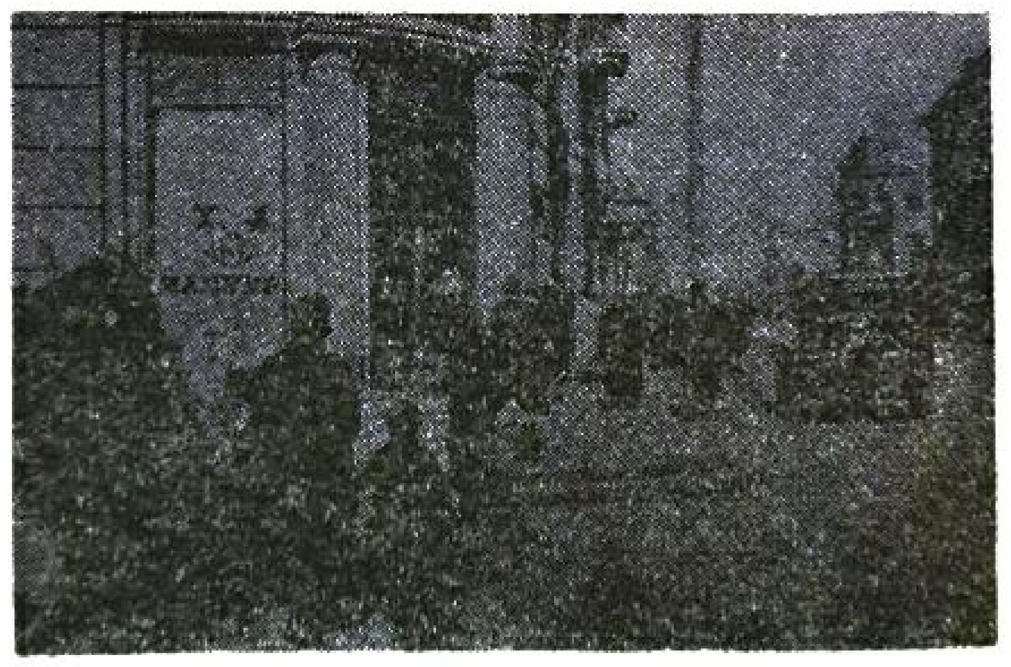
بيد ان غيوم العاصفة كانت تتجمع فوق علاقات « اليابان » مع « الولايات المتحدة » فاعتقد « سورغا » انه اذا كان في نية « طوكيو » محاربة « واشنطن » فمن المؤكد ان اليابان لا تريد مهاجمة « روسيا » في ذات الوقت . وجاء تثبيت هذا الاعتقاد في الثاني والعشرين من آب

عندما عقد كبار ضباط جيش « كوانتونغ » مؤتمرا مع القيادة اليابانيه العليا في العاصمة استغرق اربعة ايام ، فقد علم « اوزاكي » من احد معاونيه : « لقد قرر جيش كوانتونغ عدم شن الحرب على روسيا . ولهذا السبب فان ممثليه موجودون الان في طوكيو للتباحث مع السلطات المركزية » .

وعندما ادى عمل « اوزاكي » مع سكة حديد منشوريا الجنوبية الى الوصول به الى مدينة « دايرين » توجه الى بلدتي « هسنكنغ » و « هوتين » حيث راقب تحركات القطارات بكل عناية . وكم شعر بالغبطة عندما اكتشف ان تنقلات القوات لم تكن على نطاق واسع .

للمرة الأولى

وفي « هوتين » كان من حسن حظ « اوزاكا » انه نال ثقة مدير الاحصاء في الفرع التابع لهيئة الاركان العامة ، فقد اخبره ذلك المسؤول انه قبل وقت قصير من التعبئة الكبيرة في تموز ، اصدر جيش « كوانتونغ » فجأة امرا لاعداد السكة الحديد لان تكون قادرة على نقل ۱۰۰٫۰۰۰ طن من المواد والمعدات العسكرية يوميا لمدة اربعين يوما ، كما طلب « تهيئة ثلاثة الاف من عمال السكك الحديد من ذوي الخبرة والتجربة بانتظار هجوم على الجيش الروسي » .



شارع في ميناء « هوتين » الصيني في الثلاثينات

ولقد تم تنفيذ الامر كما كان مقررا في البداية ، بيد ان عدد عمال السكك الحديد اخذ بالانخفاض بالتدريج ، الى ١٥٠٠ في البداية ثم الى الف واخيرا الى مائة وخمسين . وعند اجراء هذا الحديث مع اوزاكي : لم يبق سوى عشرة عمال او ما يقارب ذلك .

وهكذا برز للمرة الاولى ، دليل لا يأتيه الباطل من امامه او خلفه ومستند على حقائق مجردة وصلدة مأخوذة من المصدر المسؤول مباشرة عن العملية الواسعة النطاق المقررة ضد الاتحاد السوفيتي ثم التخلي عنها .

الرسالة الأخيرة

وفي الرابع من تشرين الاول ١٩٤١ ، وهو يوم عيد ميلاد « سورغا » السادس والاربعين ، بث « كلاوسن » هذه المعلومات الى المخابرات السوفيتية ، فعن طريق جهاز الارسال في منزل « فوكيليتش » استطاع ايصال خلاصة لتقرير « اوزاكي » عن رحلته الى « منشوريا » وتأكيد « سورغا » النهائي بان روسيا في مأمن ، في الوقت الحاضر على الاقل ، من خوض الحرب على جبهتين . ومن ثم اخبر رؤساءه بما يلي : « من الممكن اعتبار منطقة الشرق الاقصى السوفيتية بعيدة عن اي هجوم ياباني حتى نهاية الشتاء القادم على الاقل . ولا يوجد اي شك حول ذلك . سيقع هجوم ياباني آنذاك في احدى حالتين فقط : اذا قمتم بنقل معظم جنودكم الى الجبهة الغربية او اذا قامت حرب اهلية في سيبيريا » .

وعلى اية حال فمن الصعب التوصل الى الاثر الدقيق الذي تركته هذه المعلومات على الستراتيجية السوفيتية ، ذلك ان « موسكو » لم تكشف النقاب مطلقا عن مدى التنقلات العسكرية التي اعقبت وصولها . ومهما يكن من امر ، فانه لايوجد شك في انها تركت اثرها على المستوى العالي للتفكير السوفيتي في تلك اللحظات البالغة الخطورة من تاريخ روسيا الطويل ، ففي اواخر عام ١٩٤١ قام الاتحاد السوفيتي بسحب ما يزيد قليلا على النصف من قوة الفرق في جيوشه في الشرق الاقصى لتقاتل في الغرب . وكانت هذه كافية لتحويل التيار عند « موسكو » حيث كانت الجيوش الالمانية المنتصرة تدق ابوابها .

وكانت المعلومات التي جعلت بالمستطاع اجراء هذا التحول الحيوي

في القطعات اخر ما وصل « موسكو » من شـبكة « سورغـا » في « طوكيو » ذلك ان الشبكة لم تستطع مطلقا بث اية رسالة اخرى .

فراق ابدي

ذلك المساء ، توجه « سورغا » و « هاناكو » لتمضـية بعض الوقت في صالة « الفندق الامبراطوري » المطلة على احدى حدائـق العاصمة الرائعة ، بيد ان « سورغا » كان يشعر بعدم الارتياح ، فقد قال لها بغتة : « ان الوضع في الصالة يبدو غير طبيعي ، فهنا يوجد عدد غير مألوف من رجال الشرطة ! » ومن ثم طلب منها الانتقال الى مائدة على مقربة من الباب .

وهناك تناولا بالنقاش امكانية الحرب مع الولايات المتحدة ، فقالت هاناكو : « لقد تطورت الامور الى حد لا يعرف احد اي مخـرج منه ، فحادثة الصين ما زالت تجر اذيالها كما ان الكثير من الناس قد لقـوا حتفهم نتيجة لها . ان الحكومة اليابانية تريد الحرب » .

ومن ثم اضافت بلهجة تنم عن البراءة : « من المحتمل ان اليابـان ستقوم بتقليدكم ، انتم الالمان ، وتوجيه ضربة صاعقة »(١٢) بيد انه رد عليها : « اذا قامت اليابان بمحاربة امريكا ، فانها لن تحقـق النصر مطلقا » . وعندما افترقا حوالي الساعة التاسعة ، لم يدر في خلـد « هاناكو » ان عينيها لن تقعا على « سورغا » بعد ذلك ابدا .

الايـام الخوالي

وعندما اتخذت « توكو » قرارا في نهاية المطاف بالقاء القبض على السيدة « كيتاباياشي تومو » مديرة مدرسة تعليم خياطة الازيـاء النسائية ، اتسم استجواب محققيها بحسن الادب والهدوء وتوجيه الاسئلة التقليدية . بيد ان امرا واحدا فقط اثار اهتمامهم ، فعندما تم اعتقالها ، كانت تحمل مبلغا من النقود الامريكية . من الذي تكـرم عليها بها ، وما السبب ؟

وهنا ردت « تومو » على هذا السؤال بسرد الحقيقة ، اذ قالـت بأن صديقها الطبيب القديم « مياغي يوتوكو » كان يتكرم عليهـا ، في بعض الاحيان ، بالنقود الامريكية من قبيل الوفاء لتلك الايام الخوالي .

وبعد المزيد من الاستجواب الممزوج بالرقة ، اعترفت « تومو » بأنها كانت جنبا الى جنب مع « مياغي » من « المتعاطفين » مع الحزب الشيوعي الامريكي . واضافت الى ذلك ، انه بعد ان تمت عودته الى اليابان ، بعد ذلك بمدة قصيرة ، كان يودع لديها بعض التقارير ، ليس باليابانية فحسب ، بل واللغة الانكليزية الرائعة المطبوعة ، وان كانت « لم تحاول » الاطلاع على محتوياتها . ومنذ تلك اللحظة ، بدا ان جانبا ما من الطبيعة الحقيقية للقضية قد اصبح واضحا : لقد حاولت « توكو » صيد سمكة صغيرة بيد ان ما وقع بايديها كان حوتا !

توسل !

وفي مركز الشرطة ، قام محقق آخر باستجواب « مياغي » لمدة ثلاث ساعات ، فاعترف بأن الدولارات الامريكية تعود له ، وأنه جاء بها بصورة غير مشروعة عند عودته الى بلاده .

تم استئناف الاستجواب في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي ، بيد أن ذلك جرى هذه المرة على ايدي لجنة من ستة اشخاص ينتمون الى « توكو » اتخذوا مجلسهم حول طاولة مستديرة في القاعة الكبرى لمركز الشرطة . وجد « مياغي » نفسه تحت وابل من الاسئلة التي انهالت عليه من كل جانب ، فأجاب على العامة منها دون ادنى قدر التردد غير ان اي سؤال حول التجسس حتى ولو كان ذلك من قبيل الاشارة قوبل بصمت الصخور ! ومن ثم صبوا على راسه العنيد شتى انواع الشتائم التي يحفل بها قاموس اللغة اليابانية ولكن دون فائدة ترجى . ولم تكن النتيجة افضل من ذلك عندما حاولوا اغراءه والتملق اليه حتى وصلوا الى درجة التوسل !

وعندما قرروا التوقف عن التحقيق لفرض تناول طعام الغداء . انسحب اربعة من رجال « توكو » الى غرفة متصلة بالقاعة تاركين اثنين منهم لتولي مهمة حراسة « مياغي » . وبعد ذلك عاد اثنان من المحققين الى القاعة للحلول محل زميليهما . وفي غضون اقل من ثانية ، وعندما فتح الباب ، انتصب « مياغي » مثل افعى ذات الاجراس ، وانطلق نحو النافذة المفتوحة حيث سقط من علو لا يقل عن ثلاثين قدما !

وعند هذه اللحظة ، ادرك احد المحققين ، وهو « ساكاي تاماتسو » ان الصيد الثمين على وشك الافلات ، فما كان منه الا ان قفز من النافذة في اعقاب « مياغي » ولما انطلق الاخرون من المبنى ، اكتشفوا ان الصياد والطريدة قد انبطحا على الارض وهما على قيد الحياة .

ذهول

والذي تبين بعد ذلك ، ان « مياغي » و « تاماتسو » سقطا وسط كومة شجيرات كثيفة في المتنزه العام الواقع تحت مركز الشرطة مباشرة ، وعلى الرغم من الكدمات والجراح البسيطة التي حلت بخده الايسر ، فقد قرر المحققون اعادته الى مركز الشرطة لاستئناف استجوابه ، وعندئذ ادركوا انهم اخذوا بالتعامل مع انسان آخر . كان قد قفز من النافذة تطبيقا للتقليد الياباني الرامي الى الانتحار بطريقة مشرفة متوقعا ان هذا سيكون آخر عمل له فوق سطح الارض ، وعندما اخفق في نيل الموت ، شعر بالحاجة الى الاعتراف للشروع بحياة جديدة تتسم بالنقاء .

وهكذا ، فما ان عاد « مياغي » الى قاعة المؤتمر ، حتى شرع بالحديث صراحة . ولقد اصغى رجال الشرطة الى ما كشف النقاب عنه من اسرار وهم لا يصدقون آذانهم من فرط الذهول !

القت « توكو » القبض على « اوزاكي هوتوسومي » في منزله بتاريخ ١٥ تشرين الاول ١٩٤١ . بيد انه لم يشعر بأي قلق وتوجه مع افرادها الى مركز الشرطة بكل برود ، اذ اعتقد ان السبب في استدعائه يعود للتحقيق معه حول كتاباته باعتباره مثقفا ليبراليا .

بيد ان الضابط القائم بالتحقيق وضعه امام الحقيقة مباشرة ، اذ صرخ في وجهه : « نحن لا نستجوب اوزاكي باعتباره يابانيا ، بل اوزاكي الجاسوس ! »(١٤) .

استطاع « اوزاكي » الصمود ثماني عشرة ساعة ، بيد انه وجد نفسه في النهاية بحاجة الى التخلص من التوتر العصبي الذي لايحتمل ، فقد قال : « سأخبركم بكل ما اعرف من حقائق ، لهذا ارجو منكم السماح لي ببعض الراحة هذا اليوم ، والتفكير قليلا في الامر » .

وافق رجال الشرطة ، وان سيطر السرور عليهم في واقع الحال ،

فقد شعروا بأنه من دون اعتراف اوزاكي ، فلم يكون بمقدورهم اتخاذ اي اجراء بحق الاجانب الثلاثة : رتشارد سورغا ، وبرانكو دي فوكيليتش ، وماكس كلاوسن .

ماذا جرى ؟

اجتاز « سورغا » يوما اتسم بالقلق البالغ ، وعندما جاء « ماكس كلاوسن » لزيارته في منزله بعد الظهر ، قام بتسليمه حزمة نهائية من الرسائل للقيام ببثها ، فقد شعر ان مهمة الشبكة قد انجزت اذ ارسلت المعلومات المؤكدة التي لا تقدر بثمن والقائلة بان اليابان لن تهاجم الاتحاد السوفيتي . ولقد اراد « سورغا » نفسه تبديل المسرح ، ولهذا تضمنت الرسائل التي قام بتسليمها الى « ماكس » التماسا بالحصول على تعليمات جديدة لان الاستمرار في الاقامة في اليابان اصبح امرا مجردا من كل معنى . هل ينبغي على الشبكة العودة الى الاتحاد السوفيتي ؟ هل يجب عليها الشروع بفعالية جديدة في المانيا ؟

حدق « كلاوسن » في الاوراق على عجل ومن ثم اعادها الى « سورغا » قائلا : « ارى ان من المبكر للغاية بث هذه الرسائل ، لذا ارجو منك الاحتفاظ بها بعض الوقت » .

وهكذا ، فان احتفاظ « سورغا » برباطة جأشه تجاه هذه الجرأة من جانب « ماكس » يعكس حقيقة ان وضعه النفسي لم يكن على ما يرام ، ذلك ان القلق والتوتر سيطرا عليه بسبب تخلف « اوزاكي » و « مياغي » عن اللقاء به حسب المواعيد المحددة . ترى ، هل تم القاء القبض عليهما ؟

قط وفأر

والواقع ، فانه بعد الاعترافات التي ادلى بها « مياغي » ، اصدرت « توكو » التعليمات الى « سايتو » خصم « سورغا » القديم ، بأن يشدد مراقبته للالماني بحيث لا يفسح له مجالا للنجاة او الاقدام على الانتحار مع عدم اشعاره مطلقا بان القاء القبض عليه قد صار امرا وشيكا . وهنا قام « سايتو » باستئجار غرفة في منزل عبر الشارع ، وفي ١٥ تشرين الاول ، كان يراقب دار « سورغا » مثل قط امام جحر للفيران !

وفي اليوم التالي ، كان « سورغا » اكثر شعورا بالقلق والتوتر العصبي والاضطراب . وبعد تناول طعام الغداء في احد المطاعم البعيدة عن مركز العاصمة مع « ماكس » عاد الى بيته . وكما هي العادة ، ترك سيارته في المراب (الكراج) المحلي ، بيد ان الاخير كان حلقة من الشبكة البوليسية التي احاطت به من كل جانب ، ففي كل مرة كان « سورغا » يقفل باب سيارته هناك حتى يبادر رجال الشرطة الى تفتيشها . وفي تلك المناسبة ، اسفر تدقيق سريع عن وجود كمية لا يستهان بها من الاوراق النقدية داخل مظروف انيق . وسرعان ما قام « سايتو » بنفسه بتعداد الاوراق واخذها معه الى مركز الشرطة لتصويرها ، واعادها الى صاحب المراب .

ذلك المساء ، وبناء على التعليمات ، توجه الاخير الى منزل « سورغا » لاعادة النقود . وكان رجال الشرطة يريدون منه تقريرا عما كان « الالماني » يقوم بعمله . وعندما طرق الرجل الباب ، كان « سورغا » و « كلاوسين » و « فوكيليتش » يعقدون مجلسا حربيا حول الشخصين المفقودين من الحلقة . فتح « سورغا » الباب امام صاحب المراب ودعاه للدخول ، وبعد ان قام بتعداد الاوراق ، منحه جائزة مناسبة . ومن الواضح انه شعر بالدهشة والذعر ازاء هذا الدليل على اصابته بالاهمال !

وعند هذا الحد ، لابد من سؤال : لماذا تأخر القاء القبض على هؤلاء ؟ كانت حكومة رئيس الوزراء « كونويا » واقفة على اطراف اصابعها ، وفي ظل تلك الظروف ، شعر المدعي العام « يوشيكازا ميتسودا » بأن من غير المحتمل ان يوافق مجلس الوزراء على اثارة فضيحة قد تؤدي الى الاطاحة بها ، ولهذا كان من مصلحة « كونويا » اضفاء اقصى قدر من السرية على قضية « سورغا » .

بيد انه ما ان حل الثامن عشر من تشرين الاول ، حتى سقطت حكومة « كونويا » وكانت الوزارة الجديدة اكثر من راغبة في جعل سابقتها امام موقف حرج . وهكذا حصل المدعي العام « ميتسودا » على موافقة وزير العدل على اعتقال الاجانب . وفي ساعة مبكرة من اليوم العشرين من تشرين الاول ، قامت ثلاث مجموعات من وكلاء « توكو » بجلب « سورغا » و « كلاوسن » و « فوكيليتش » بعد ان انتزعتهم وهم نيام في اسرتهم !

اعتراف كامل

ادى القاء القبض على « سورغا » الى اثارة رد فعل فوري وعنيف داخل السفارة الالمانية ، فنظرا الى ان اليابانيين لم يعلنوا بعد عن الاتهامات الموجهة اليه ، فان الشك مصحوبا بالدهشة قد ساد سائر ارجاء المبنى .

وبعد ان استشاط غضبا ، وجه السفير « اوت » في الحال احتجاجا رسميا الى وزارة الخارجية اليابانية مع المطالبة ، بلهجة قوية ، بمقابلة « سورغا » ، بيد ان المدعي العام اراد تأجيل الزيارة الى حين الحصول على اعتراف « سورغا » بالتجسس .

ولم يدم ذلك طويلا ، ذلك ان الادلة ضده كانت شاملة ، فقد تحدث افراد الحلقة ، باجمعهم بحرية تامة كما ان « توكو » عثرت على سجل الشفرة الذي يحتفظ به « كلاوسن » اضافة الى جهاز البث ورزمه من رسائل سرية اعدت باللغة الانكليزية وبخط « سورغا » نفسه الذي ادرك ان من قبيل العبث انكار كل ذلك . بيد انه لم يرغب في مقابلة « اوت » نظرا الى انه سيكون من قبيل الحرج البالغ ان يرى الرجل الذي قام بخيانة ثقته به ذلك الامد الطويل .

وعلى اية حال ، فان « يوشيكاوا » اعترض على موقف « سورغا » قائلا له : « قد يكون تفكيركما مختلفا من الناحية السياسية ، بيد انه ينبغي عليك توجيه كلمة وداع له باعتباره صديقا » .

وافق « سورغا » على ذلك ولكن على مضض ، فقام « يوشيكاوا » باتخاذ الترتيبات للقاء . وعندما دخل السفير « اوت » قاعة الاجتماع مع حاشيته ، كانت تبدو على وجهه علائم التباهي ، والصرامة والسخط والجدية البالغة ، وبذلك اوضح تماما انه تعرض الى اهانة . وعندما اتخذ اعضاء الوفد الالماني مجالسهم ، تم جلب « سورغا » الى القاعة .

كان الحديث رسميا اكثر مما يجب نظرا الى ان « اوت » طرح سلسلة من الاسئلة التي جرت الموافقة عليها مسبقا .

وبعد حوالي عشر دقائق من ذلك ، وصل السفير الى نهاية الاسئلة المدونة . وبعد ان وجه نظرة متفحصة الى « سورغا » توجه « اوت » الى صديقه عما اذا كان لديه ما يريد قوله .

حطام انسان

سادت القاعة لحظات من الصمت المشوب بالتوتـر ، بينمـا رد « سورغا » على سؤال « اوت » وقد ارتسمت على وجهه امارات الحيرة وكأنه في مأتم : « ايها السيد السفير ، هذه هي ساعة افتراقنا النهائي . ارجو ابلاغ تحياتي الـى زوجتك وعائلتك » .

وما ان تردد صدى هذه الكلمات في القاعة ، حتى بدا وكأن العمر قد تقدم بالسفير عشرين عاما كاملة ، ومن الواضـح انـه ادرك ، للمرة الاولى ، حقيقة الامور فظل ، وافراد حاشيته ، جلوسا وكأنما قدوا من صخرا . ولما لم يعد بالمستطاع احتمال الصمت ، نهض « سورغـا » بسرعة وانحنى قليلا للحاضرين ثم غادر القاعة الى زنزانته .

وما ان اغلق الباب خلف « الالماني » حتى تغير موقـف « اوت » كلية ، فقد اخبر المحقق الياباني بما يلي : « ارجو منك التحري في هذه المسألة بشكل شامل لمصلحة بلدينا وان تخوض فيها حتى الاعماق » .

ومهما يكن من امر ، فنتيجة لاستغلال « سورغا » لصداقته وخيانته لتلك الصداقة ، فقد ارغم « اوت » على الاستقالة من منصب السفارة . وكان معنى ذلك نهاية سجل وظيفي لامع ، اذ غادر « اوت » طوكيو وهو حطام انسان ممزق القلب من فرط الخيبة .

مصائر

امضى « سورغا » حياة جيدة نسبيا في السجن بحيـث يمكـن اعتبارها افضل من تلك التي عاشها اليابانيون الذين اثقلت الضرائـب كاهلهم خارج اسوار السجن . وبموجب القانون الياباني فان من حـق السجين ان يتصرف بالنقود التي يعثر عليها لديه بالطريقة التي يرتأيها . وعندما تم القاء القبض على « سورغا » كان لديه مبلـغ ١٠٠٠ يـن وقرابة ١٥٠٠ دولار امريكي ، وكانت تلك المبالغ لا يسـتهان بهـا في اليابان في مطلع الاربعينات الامر الذي جاء في محله ذلـك ان فتـرة الاعتقال امتدت زمنا طويلا فلم يتم ابلاغ الصحافة بعملية كشف النقاب عن الشبكة الا في مايس ١٩٤٢ ولم تبدأ المحاكمة الا في مايس ١٩٤٣ .

ولقد اختلفت مصائر اعضاء الشبكة ، ذلك ان مياغـي ، الفنـان الشاب ، توفي بمرض السل في غضون المحاكمة . امـا « فوكيليتش »

المصور والصحفي اليوغوسلافي فقد حكم عليه بالسجن مدى الحياة بيد أنه لم يلبث ان فارق الحياة بالسكتة القلبية في السجن بعد ١٦ شهرا من صدور الحكم ضده .

نال « ماكس كلاوسن » حكما بالسجن مدى الحياة ايضا بينما تقرر وضع « أنا » وراء القضبان لمدة ثلاث سنوات . وعندما استطاع الامريكان احتلال اليابان عام ١٩٤٥ افرجوا عنهما مع سائر السجناء السياسيين فتوجها للعيش في الجزء الشرقي من المانيا . ولم يصدر حكم بالاعدام الا بحق « سورغا » و « اوزاكي » .

سوء الحظ

استقبل « سورغا » قرار الادانة برباطة جاش . وبموجب احكام القانون الياباني ، فقد تم استئناف الاحكام بشكل تلقائي وظل « سورغا » متمسكا بالامل في أنه لن يجابه الموت بواسطة حبل المشنقة اذ لم يتخل عن اعتقاده بأن الاتحاد السوفيتي سيتخذ اجراء ما مع اليابانيين يؤدي الى استعادته لحريته .

كان « سورغا » على معرفة جيدة بأن الذي حدث في الغالبية العظمى من قضايا التجسس التي تم كشف النقاب عنها ، فان البلد صاحب العلاقة كان يفضل التضحية بالوكيل بدلا من التعرض الى الاحراج . بيد ان اعتداده بذاته كان هائلا لذا لم يضع نفسه في عداد الذين يجب تجاهلهم . ومن سوء حظه ، فان الكرملين لم يوافقه على رايه ، وهكذا تم تنفيذ حكم الاعدام شنقا بكل من « سورغا » و « اوزاكي » في السابع من تشرين الثاني ، ١٩٤٤ .

ومن اغرب التطورات في هذه القضية ، انه ما ان حل عام ١٩٦٧ ، حتى اعترفت الحكومة السوفيتية بان « سورغا » كان من مواطنيها وانه قام « بواجبه بكل ما في قدرته » ولهذا تم منحه « وسام الراية الحمراء » ولقب « بطل الاتحاد السوفيتي » كما تقرر ان يكون القبر الذي دفن فيه باحدى حدائق « طوكيو » جزءا من السفارة السوفيتية . والان ، فان سفينة البضائع « رتشارد سورغا » تمخر عباب المحيطات كما ان ملامحه الوسيمة تطل من عدد من طوابع البريد .

والان ، ماذا تقول دائرة المعلومات البريطانية عنه ؟



قبر سورغا باحدى حدائق العاصمة اليابانية وتبدو الى جانبه صديقته التي تزوره من وقت لاخر

سورغا رتشارد

ولد في ٤ تشرين الاول ١٨٩٥ ، في مدينة « باكو » الروسية وهي الان في جمهورية اذربيجان الاشتراكية السوفيتية ، وتوفي في ٧ تشرين الثاني ١٩٤٤ ، في طوكيو . مراسل صحفي الماني تراس بنجاح شبكة تجسس سوفيتية في العاصمة اليابانية في غضون الحرب العالمية الثانية .

فبعد ان خدم في صفوف الجيش الالماني اثناء الحرب العالمية الاولى ، حصل على شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية في جامعة « هامبورغ » ثم توجه الى « موسكو » . وفي عام ١٩٢٩ ارسلته منظمة الشيوعية الدولية (الكومنترن) الى الصين لتنظيم شبكة تجسس . وهناك حصل على الشهرة باعتباره صحفيا قديرا ومواطنا المانيا مخلصا . وفي عام ١٩٣٣ انضم الى صفوف الحزب النازي ، ومن ثم ارسله الكومنترن الى اليابان حيث اصبح المستشار السياسي للسفير

الالماني الميجر – جنرال (اللواء) يوجين اوت .

وفي ١٢ مايس ١٩٤١ ، رفع « سورغا » تقريرا الى السوفيت مفاده ان ١٧٠ فرقة المانية ستشن هجوما عليه طول الحدود السوفيتية في ٢٠ حزيران ، وبالفعل وقع الهجوم في ٢٢ حزيران على ان ينطلق الزخم الرئيس باتجاه موسكو . وفي آب ١٩٤١ ، بعث « سورغا » تقريرا اخر يقول ان الجيش الياباني ينوي الزحف جنوبا نحو اهداف في المحيط الهادي بدلا من التوجه شمالا ضد الاتحاد السوفيتي . ولقد ادت هذه المعلومات الى رفع الضغط على القوات السوفيتية المرابطة على حدود منشوريا ، وهي اقليم صيني كان تحت الاحتلال الياباني ، وتحويلها للخدمة في الغرب ضد الالمان .

وفي ١٨ تشرين الاول ١٩٤١ ، القي القبض على « سورغا » من جانب اليابانيين ثم اعدم شنقا مع اوزاكي هوتسومي ، وهو ياباني يعمل وكيلا لروسيا . وفي عام ١٩٦٤ منح « سورغا » لقب بطل الاتحاد السوفيتي[١٥] .

هوامش الفصل الثالث

(١) اي « السيد الدكتور » بالالمانية .

(٢) اصبح «هتلر» مستشارا لالمانيا في ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٣ .

(٣) الاسم الذي اطلق على المانيا بعد تولي الحزب النازي السلطة هناك .

(٤) Vaterland بالالمانية .

(٥) افراد الجيش الخاص بالحزب النازي .

(٦) Mein Kampf بالالمانية .

(٧) البوليس السري النازي .

(٨) العملة اليابانية .

(٩) ويقول المثل العربي : « القشة التي قصمت ظهر البعير » .

(١٠) اطول سكة من نوعها في العالم وتمتد من « موسكو » الى ميناء « فلاديفستك » المقابل لليابان في الشرق الاقصى .

(١١) اليابان .

(١٢) اندونيسيا حاليا .

(١٣) الغريب ان ذلك تحقق فعلا بهجوم « اليابان » البحري والجوي المباغت في ٧ كانون الاول ١٩٤١ على قاعدة « بيرل هاربور » او « ميناء اللؤلؤ » الامريكية في جزيرة « هاواي » مما ادى الى قيام الحرب بين الدولتين .

(١٤) يلاحظ ان بداية القاء القبض على اعضاء الشبكة قد جرت قبل مبادرة اليابان الى شن الهجوم على قاعدة « بيرل هاربور » الامريكية في جزيرة « هاواي » ومن ثم قيام الحرب بين الدولتين وان كان ذلك لم يؤثر على علاقات « طوكيو » مع « موسكو » طبقا لمعاهدة الحياد المعقودة بين البلدين والتي اشرنا اليها .

(١٥) The New Encyclopaedia Britannica, 1973 Volume Ix, P. 358 .

الفصل الرابع

ونجح الانقلاب الثالــث

في التاسع والعشرين من تشرين الاول عام ١٩٣٦ ، وقع اول انقلاب في تاريخ العراق والعرب الحديث ، وذلك على يد الفريق « بكر صدقي » قائد الفرقة الثانية ووكيل رئيس اركان الجيش(١) يساعده في ذلك الفريق « عبداللطيف نوري » قائد الفرقة الاولى التي كانت تشارك الثانية في مناورات في منطقة « قرهغان » الكائنة الى الشمال من مدينة « بعقوبة » مركز محافظة « ديالى » آنذاك والان .

ولقد ادى الإنقلاب الى اسناد رئاسة الحكومية الى السياسي المخضرم « حكمت سليمان » والمعارض العنيد لسلفه « ياسين الهاشمي » رغم انهما كانا حليفين في حزب « الاخاء » الذي اخذ على عاتقه مقاومة ابرام معاهدة ١٩٣٠ التي عقدها « نوري السعيد » مع بريطانيا . وفي ذات الوقت احيل « طه الهاشمي » على التقاعد وهو في « اسطنبول » في طريق العودة الى « بغداد » وحل « بكر صدقي » محله . اما « عبداللطيف نوري » فقد اصبح وزيرا للدفاع في التشكيلة الجديدة .

موكب عسكري

ولم يمر تنفيذ الحركة بسلام ، ففي الساعات الاولى من ذلك ، تم اغتيال « جعفر العسكري » وزير الدفاع في حكومة « الهاشمي » وصهر « السعيد » وحليفه السياسي الاول عندما توجه الى « بعقوبة » في محاولة لاقناع « بكر » بعدم استمرار الزحف على « بغداد » بعد ان قدمت الحكومة استقالتها الى الملك « غازي » الذي بدا انه منسجم مع الانقلاب ان لم يكن متفقا مع مدبريه .

على اية حال ، فقد دخل « بكر » العاصمة في موكب عسكري بعد ظهر نفس اليوم ، ومن ثم توجه الى وزارة الداخلية حيث وجد « حكمت » بانتظاره . وبعد وصول الارادة الملكية الخطية(٢) بتكليفه برئاسة الحكومة ، توجه الجميع الى دار الاخير حيث اعدت مأدبة عشاء حضرها معظم المساهمين معه في الانقلاب من كبار الضباط .



بكر صدقي

وفي غضون المأدبة ، اعلن « بكر » انه ينوي اغتيال كبار المسؤولين في الحكومة السابقة . خاصة « الهاشمي » و « السعيد » و « الكيلاني » مما اثار الفزع في قلب رئيس الوزراء الجديد الذي ناشده التخلي عن فكرته خوفا من سوء العاقبة لما لهؤلاء من انصار واعوان داخل الجيش وخارجه . وبلغ الامر الى حد تدخل قرينة « حكمت » شخصيا اذ انضمت الى زوجها في ذلك .

ويقول « سندرسن باشا » طبيب العائلة المالكة في مذكراته الموسومة « عشرة الاف ليلة وليلة » انه كا مدعوا للعشاء في دار السفير البريطاني السير « ارشيبالد كلارك ـ كير » ذلك المساء وفجأة جاء نداء هاتفي للسفير الذي عاد فاخبر الطبيب ان « العسكري » قد قتل وطلب منه ان يترأس الحفلة بدلا منه حيث غادر داره الى منزل « حكمت سليمان » بيد انه لم يعرف فحوى ما دار هناك وان تركز الحديث ، بالتأكيد حول نية الاغتيال .

الى المنافي

وفي صباح اليوم التالي ، الثلاثين من تشرين الاول ، تم نقل « الهاشمي » و « الكيلاني » بالسيارة الى « دمشق » ومنها الى « بيروت » حيث لم يلبث الاول ان لقي وجه ربه كمدا ، ولما ارادت عائلته جلب جثمانه الى « بغداد » لدفنه فيها ، رفضت السلطات الانقلابية ذلك خوفا مما يصاحب ذلك من متاعب ومشاكل ، فدفن «الهاشمي» في «دمشق» الى جانب مرقد «صلاح الدين الايوبي» . اما « السعيد » فقد نقلته طائرة حربية انكليزية من مطار « الهنيدي »(٢) الى « القاهرة » ومعه زوجته وابنه « صباح » .

وعلى اية حال ، لم تمر سوى ايام قلائل حتى اتضح للجميع ان السلطة الحقيقية قد اصبحت بيد « بكر » حتى ان الملك « غازي » انزوى في قصره ولم يعد قادرا على القيام بأي تدخل . ومع بروز هذا الواقع ، ادرك خصوم الانقلاب انه لايمكن الاطاحة بالوزارة الا باغتيال رئيس اركان الجيش بما يشبه حركة انقلابية ان لم يكن كذلك .



حكمت سليمان

في غضون ذلك ، لم تنقطع صلة « السعيد » باعوانه من عسكريين ومدنيين في العراق ويقال بأنه اتصل بالملك « عبدالعزيز السعود » لاقناعه بترشيح احد انجاله ليحل محل الملك « غازي » في حالة ارغامه على التنازل عن العرش بعد القضاء على الانقلاب من خلال الفتك بقائده . وعلى أية حال ، فقد تم تدبير عدة خطط لتنفيذ عملية الاغتيال وكانت هذه الحقيقة معروفة لدى « بكر » الذي بلغ به الحذر الى حد نصب خيمة خارج العاصمة لقضاء الليالي فيها .

بيد أن اقوى جهة تستطيع تحقيق ذلك كانت كتلة الضباط القوميين داخل الجيش وابرزهم « صلاح الدين الصباغ » و « فهمي سعيد » و « محمود سلمان » و « كامل شبيب » . وعلى الرغم من تجميد ثلاثة منهم ونقل « فهمي » الى الموصل فان ذلك لم يقلل من نشاطهم السري واتصالاتهم فيما بينهم ومع اعوانهم .

في الموصل

وجاءت الفرصة السانحة عندما تلقى الفريق دعوة من الحكومة التركية لحضور المناورات السنوية المعتادة من جانب جيشها . سافر « بكر » عن طريق « كركوك » و « اربيل » الى ان وصل « الموصل » في الحادي عشر من آب ١٩٣٧ . وعلى الرغم من وجود خطتين لاغتيال « بكر » في « كركوك » او « اربيل » الا انهما لم تريا النور لاسباب غير معروفة . ويقول المحامي « حازم المفتي » الذي كان وثيق الصلة بكل ما يجري في الخفاء فيقول بأن « الصباغ » زوده برسالة الى « فهمي » في « الموصل » يخبره ان « بكرا » قادم وان الفرصة حانت للخلاص منه وهو في طريقه الى تركيا(٤) .

وبينما كان « بكر » يأخذ قسطا من الراحة عصر ذلك اليوم في حديقة مطار الموصل ومعه « محمد علي جواد » آمر القوة الجوية ، دخل عليهما جندي بحجة تقديم المرطبات ، وبغتة اطلق النار على راس « بكر » الذي لفظ انفاسه في الحال ، ولما حاول الجندي الفرار ، لحق به « جواد » محاولا القاء القبض عليه رغم صياح القاتل بانه لم يكن مستهدفا فما كان منه الا ان صوب مسدسه عليه وارداه قتيلا في الحال .

كان للنبأ وقع الصاعقة في العراق عامة وبغداد خاصة ، ولما كان اعوان « بكر » يتمتعون بنفوذ في وزارة الدفاع ، فقد طلبوا من « حكمت » فورا اجراء تحقيق في الحادث وجلب المتهمين الى العاصمة لمحاكمتهم فاستجاب لذلك بأمل ان تؤدي هذه الخطوة الى ابقاء حكومته في السلطة رغم علمه التام بأن مركز وزارته قد تزعزع كلية . تم ارسال احد المحققين الى « الموصل » حيث كانت السلطات قد القت القبض على بعض الضباط وابرزهم « فهمي » و « محمود الهندي » . ولما وصل المحقق صار يهدد الموقوفين بعبارات خشنة مع الاعلان عن نيته في التوسيع في التحقيق والاعتقالات .

عصيان

ولا يعرف احد دور اللواء « امين العمري » آمر حامية « الموصل » في تدبير الحادث او علمه به ، ويبدو ان احدا لم يطلعه على ذلك بدليل موافقته على الاعتقالات ، بيد انه عندما ادرك ان العملية ستتسع ولما هدد احد الضباط الموقوفين بأنه سيعترف ان آمر الحامية كان على علم بالأمر ، بادر الى اعلان العصيان عن حكومة « بغداد » بهدف اسقاطها .

ولقد تطورت الامور بعد ذلك بشكل سريع جدا وغير متوقع ، فقد حاول « حكمت » ارسال قطعات من الجيش ، خاصة من معسكر الوشاش(٥) لمحاولة القضاء على التمرد ، فاصيب الضباط فيه بقلق شديد من احتمال حدوث حرب داخل الجيش قد تجر الى حرب اهلية على غرار ما كان يجري في اسبانيا آنذاك ، فقرروا رفض اطاعة الاوامر واعتصموا في معسكرهم ، فلم يعد « حكمت » يعرف ماذا يفعل .

وكان رئيس الوزراء السابق وعضو مجلس الاعيان « جميل المدفعي » قد ترك العراق في اول تموز ١٩٣٧ بعد التصريحات المعادية للانقلاب في المجلس ، فلما قتل « بكر » ابرق « حكمت » للمدفعي طالبا منه العودة لتولي منصب وزير الدفاع(٦) . والذي يبدو ان الاخير وافق على الطلب بدليل عودته الى بغداد ، بيد ان عصيان حامية الموصل وتمرد معسكر الوشاش قد جعلا « حكمت » يفكر بالاستقالة وسرعان ما اتجهت الانظار الى « المدفعي » لتشكيل حكومة جديدة وذلك على ضوء ما عرف عنه من الرغبة في التهدئة وعدم حب الانتقام .

وكان من المستحيل في تلك المرحلة دعوة « السعيد » او « الكيلاني » للعودة الى العراق او تكليف احدهما برئاسة الحكومة نظرا لما سيترتب على ذلك من نتائج وخيمة .

« حدثني الدكتور سامي شوكت قائلا : لما ظهرت بوادر العصيان في الموصل وفي بغداد ، وشعر حكمت سليمان ان وزارته ذاهبة الى غير رجعة ، اتصل بالملك غازي ، وحذره من تكوين اية وزارة برئاسة نوري السعيد لئلا تتناول سياسته الانتقامية شخصية الملك بالذات — بزعم انه يعد شريكا في حركة ٢٩ تشرين الاول ١٩٣٦ وهي الحركة التي قتل فيها جعفر العسكري ، صهر نوري السعيد ، وانه خير للبلاد وللبلاط معا ان يكون على راس الوزارة رجل حيادي مثل جميل المدفعي ، على ان يؤخذ عليه عهد باتباع سياسة خاصة هي سياسة اسدال الستار على الماضي بحسناته وسيئاته ، وعلى هذا فان السيد محمد الصدر ، رئيس مجلس الاعيان سابقا ، كلفني ان اكون في عداد المستقبلين للسيد المدفعي واطلب اليه الاجتماع « بالصدر » قبل ان يذهب الى البلاط الملكي ويرتبط بالعهد الذي يراد تكليفه بـه .

ويضيف سامي شوكت الى ما تقدم انه خرج الى المطار فوجد عدد المستقبلين للمدفعي يفوق حد التصور ، بحيث لم يتسن له التحدث اليه بما كلف به . فطلب الى الحاج ياسين الخضيري(٧) ان ينقل رغبة الصدر الى القادم ، ففعل ذلك ، ولكن المدفعي ذهب الى البلاط تـوا ، وبعد ان قابل الملك غازي ، قصد مقر وزارة الداخلية واجتمع بمصطفى العمري قريب امين العمري آمر حامية الموصل لدرس الحالة العامة في الموصل وفي حامية الوشاش وما لبث ان انتقل الى هذا المعسكر ، بصفة كونه وزير الدفاع المنتظر ، واتصل فيه بالضباط القائمين بحركة العصيان ضد اوامر الوزارة السليمانية وبعد ان وثق من مؤازرة الجيش له ، فيما اذا كلف بتكوين وزارة جديدة ، اجتمع بالملك ثانية »(٨) . ولقد ضمت الوزارة الجديدة التي تشكلت في ١٧ آب كلا من « مصطفى العمري » « عباس مهدي » و « جلال بابان » والشيخ « محمد رضا الشبيبي » و « توفيق السويدي » و « ابراهيم كمال » . وكان من الطبيعي ان ينتهي العصيان في « الموصل » و « بغداد » .

لنقتل غازي !

في غضون ذلك ، كان « السعيد » ما زال مقيما بالقاهرة ، وفجأة تلقى « المدفعي » برقية منـه في ١٨ آب مفادهـا ان « عبداللطيف

نوري » و « اسماعيل عباوي »(٩) سيصلان « الاسكندرية » بالباخرة « اسبيريا » ، واضاف ان العدل يقتضي التحقيق في قضية مقتل « العسكري » ثم طلب منه الاسراع بتوسيط بريطانيا والحكومة المصرية لتوقيفهما وتسليمهما لحكومة العراق .

وكانت الوزارة قد حسبت لقضية مقتل « جعفر » الحساب اللازم ، فأمرت بتوقيف المتهمين بذلك من الذين كانوا في العراق ، دون اتخاذ اي اجراء بشأن برقية « السعيد » . ولما حاولت اجراء محاكمتهم ، قيل لها أن « قانون العفو العام » الذي شرعه مجلسا النواب والاعيان (مجلس الامة) في ايام الوزارة السليمانية يشمل هؤلاء الموقوفين ولا يبيح محاكمتهم . يضاف الى ذلك ان « سياسة اسدال الستار » التي تقرر ان يتبعها « المدفعي » لا تسمح باتخاذ مثل هذا الاجراء ، وبناء على ذلك امرت بتسريح اولئك الذين قررت توقيفهم .

يقول « الصباغ » في ص ٩٠ ــ ٩١ من مذكراته : ثم عادت بي الذاكرة الى سنة ١٩٣٧ بعد اسبوعين من مقتل بكر صدقي ، اذ جاء صباح بن نوري بن سعيد الى بغداد (بعد ان كان وابوه طريدين خارج العراق) فدعاني وفهمي الى وليمة في فندق كارلتون (آمر زيا) اقتصرت علينا نحن الثلاثة . قال صباح ان اباه اوفده للاتصال بنا واستشارتنا بخصوص عودته الى بغداد ، اذ يهمه ان يعلم وجهة نظرنا وهل نمانع في عودته او لا نمانع ، وهو في نفس الوقت لا يقيم اي وزن لرضا جميل (المدفعي) او غضبه ، لانه يعلم سلفا ان جميلا لا يريد عودته الى العراق(١٠) .

« ثم اضاف صباح في مجرى الحديث ما اذا كنا نرى قتل غازي والحاقه ببكر صدقي وتخليص البلاد من عبثه ، فرد عليه فهمي بصوته الجهوري :ــ لا يا صباح ، لن يحدث هذا ابدا . واجبته بدوري : نحن لا نرى مانعا من عودة والدك الى بغداد ، لكننا نشترط عليه ان يمد لجميل يد المعونة لا ان يخاصمه لاننا نريد ان يوحد السياسيون صفوفهم ليعملوا يدا واحدة على تحقيق اهداف البلاد متعظين بما لحقهم من اهانات في عهد بكر صدقي بنتيجة تناحرهم على كراسي الحكم وحسبنا تلك السياسة المزيفة التي مزقت الشعب العراقي شيعا واحزابا » .

« اما بصدد اغتيال غازي ، فنحن ابعد الناس عن التطرق الى ذكره ولا نسمح بأن يذكر امامنا . فاذا كانت هذه الفكرة تدور في رأس والدك

فانه يلعب بالنار وخير له ان يبقى حيث هو فلايعود الى العراق ، ونؤكد على ذلك تأكيدا . فوجم صباح وتلعثم اذ ادرك خطورة غلطته وفكرة ابيه ، ثم سرعان ما ثاب لرشده ، واستجمع قوته فقال مستدركا :ـ «لكما على والدي ما اردتما منه وسيقابلكما فور عودته الى بغداد . اما ما قلته بصدد غازي فهو من بنات افكاري وليس من راي والدي في شيء ، بل مجرد سؤال وددت ان اطرحه عليكما ، وانا كما تعلمان صديق غازي منذ الصغر .

« ليحضر اذن ابوك ، وسنرجو من جميل ان لا يمانع في عودته . ونسعى لازالة ما بينهما » .

كتل

وعلى أية حال ، يبدو لنا من تسلسل الاحداث ان « طه الهاشمي » كان اول من عاد الى « بغداد » اواسط ايلول ١٩٣٧ واعقبه «السعيد» بعد ذلك بأيام . أما الكيلاني فقد ظل في بيروت .

ومع مرور الايام ، برزت الى الوجود اربع كتل سياسية وعسكرية على الشكل التالي :

الاولى : شملت المساهمين في انقلاب « بكر » وابرزهم « حكمت » والضابطين « شاكر الوادي » و « اسماعيل الاغا » وعلى الرغم من هؤلاء لم ينلهم اي اذى بسبب اقدام « المدفعي » على اتباع « سياسة اسدال الستار على الماضي » ، الا ان العسكريين فقدوا مراكزهم في الجيش سواء بالاحالة على التقاعد او بالنقل الى وحدات غير فعالة الامر الذي اثار سخطهم على الوزارة ، ولكن اعضاء الكتلة هذه لم يتمكنوا من الانضمام الى اية جهة معادية اخرى .

الثانية : تكونت من جماعة « السعيد » و « طه » الذي عاد الى بغداد في تشرين الثاني ، ومنذ البداية اظهرت هذه الكتلة عداءها السافر لحكومة « المدفعي » . للسبب الذي تطرقنا اليه ، وهكذا ظلت تنتهز الفرص للانقضاض عليها في اقرب فرصة ممكنة .

الثالثة : وكانت في داخل الجيش كتلة اخرى اطلقت على نفسها ، وان كان ذلك امرا بالغ السرية ، لقب « القومية » وهي تضم العقداء الاربعة المعروفين وغيرهم من الضباط من مختلف الرتب . وقد لعبت

هذه الكتله . كما قلنا ، دورا بارزا في الاحداث التي ادت الى خروج « حكمت » من السلطه مما زاد من قوة شكيمتها خاصة بعد ان استطاع افرادها البارزون استلام قيادة اقوى الوحدات الضاربة في الجيش العراقي آنذاك بحيث كان الجميع اما يضمرون الخشية منهم او محاولة التقرب معهم .

الرابعة : وعلى الرغم من ان العقداء وانصارهم قد افلحوا بما قاموا به ضد الانقلاب ورجاله ، الا انه لم يكن باستطاعتهم ابعاد عدد من الضباط الاقدم منهم في المسلك خاصة « نظيف الشاوي » و « سعيد التكريتي » و « يوسف العزاوي » وسرعان ما القى اولئك ثقلهم الى جانب « المدفعي » .

دفاع

وقبل المضي قدما في التطورات التي اعقبت بروز هذه التكتلات . نعود الى القول الى ان « ابراهيم كمال » وزير المالية قد اوضح « سياسة اسدال الستار على الماضي » بقوله في الجلسة النيابية المنعقدة في يوم ٢٩ كانون الاول ١٩٣٧ :

« نعم سادتي ! نحن لا نريد ان نفتح ابوابا اخرى تعيد للماضي مراراته التي يعلمها الجميع . انما نريد من ممثلي الامة ان يتحدوا؛ ويتظافروا مع الحكومة ، للوصول الى غاياتها ، وهي قبر الماضي . وفتح صفحة جديدة للاخاء ، والمناقشة ، والمذاكرة في شؤون الدولة بروح نزيهة بريئة »(١١) .

واوضح رئيس الوزراء هذه السياسة في جلسة مجلس النواب المنعقدة في يوم ٦ شباط ١٩٣٨ في غضون بحث قانون اعفاء قتلة بكر صدقي من التبعية القانونية فقال :

« كنت دائما ارجو من الاخوان ان يسدلوا الستار على الاعمال التي جرت في الماضي . وقلت ان هذا الماضي يجب ان يشمل الماضي القريب ، والماضي الذي هو ابعد منه ، وذلك خوفا من حصول خصومة واصطدامات بين الاخوان ، ليس فيها الا اظهار الاحقاد ، واثارة الضغائن ، في وقت نحن فيه بحاجة الى الاستقرار ، والهدوء والسكينة »(١٢) .

ولقد شعرت الحكومة المدفعية بما يقوم به خصومها ضدها ، كل لغايته الخاصة ، فاستصدرت مرسوما مستعجلا ، وكان مجلس الامة في عطلة ، اطلقت عليه اسم « مرسوم منع الدعايات الضارة » وقد قالت في اسبابه الموجبة ما يلي :

« وجدت الحكومة ان الحالة التي صارت اليها البلاد ، على اثر الحوادث الاخيرة ، تستدعي الاسراع في استصدار تشريع من شأنه ان يحول دون افساح المجال لقيام بعض الاشخاص بأعمال من شأنها ان تعكر صفو الامن ، والهدوء والاستقرار الذي اعتبرته الحكومة من اهم الواجبات التي عليها ان تعمل على توطيدها .

« وعلى ذلك رؤي من الضروري استصدار المرسوم ، الموضوع البحث ، الذي وان كانت الاعمال المنصوص عليها فيه معاقبا عليها لدرجة ما ، بمقتضى القوانين المرعية ، الا ان الضرورة اوجبت معالجة هذه القضايا بسرعة لا تتوفر في اجواء المحاكم ، وحسب قناعة الحكومة ، المستندة الى تقارير ليس من المصلحة ان تكون موضوع بحث ومناقشة علنية امام المحاكم ، في وضع البلاد الراهن . على انه لوحظ نظرا لهذه الاعتبارات ، ان لا تكون التدابير المتخذة تجاه من يقوم بهذه الاعمال متضمنة عقوبات شديدة ، وانما اكتفى بالزام هؤلاء بالاقامة ، أو عدم الاقامة ، في اماكن معينة ، ووضعهم تحت مراقبة الشرطة . الامر الذي اعتبر كافيا للردع والحيلولة دون التمادي في ارتكاب الاعمال المضرة .

« ونظرا الى ان طبيعة تطبيق هذه التدابير بحق الموظفين تؤثر على امكان الاستمرار على قيام واجباتهم على الوجه المطلوب ، فضلا عما في ارتكابهم الاعمال التي تستدعي تطبيق هذه التدابير عليهم ، مما يدل على فقدان حسن السيرة والاخلاص للدولة عندهم ، فقد وجد من الضروري فصلهم من الوظيفة في هذه الحالة كما هو نص المادة الخامسة من المرسوم » .

وقد نصت المادة الثالثة من المرسوم على ان :

« لمجلس الوزراء ، اذا اقتنع بقيام اي شخص بدعاية مضرة ، بناء على تقرير يرفعه وزير الداخلية ، ويضمنه الاسباب المؤيدة لذلك ، ان يقرر لزوم اقامته في مكان معين ، او منعه من الاقامة في مكان او امكنة معينة في داخل العراق لمدة لا تزيد على ثلاث سنوات يكون الشخص في خلالها تحت مراقبة الشرطة » .

ونصت المادة الرابعة منه على ان : « لا يمنع تطبيق احكام هـــذا المرسوم من اتخاذ التعقيبات القانونية بمقتضى اي قانون آخر » .

كما ان المادة الخامسة من المرسوم نصت على ان : « يفصل الموظف الذي تطبق عليه احكام هذا المرسوم ، ويكون لقرار الفصل عين الاثر المترتب على مقررات الفصل الصادرة من مجلس الانضباط العام » .

مآخــــذ

يقول « الهاشمي » في مذكراته : « أما رايي انا في وزارة جميــل المدفعي ، فالواقع اني فرحت لتأليف جميل الوزارة بعد اغتيال بكر ، واعتبرته رجل الساعة ، حتى اني ارسلت اليه برقية التهنئـة مـــن استانبول خروجا علـى عادتي .

« ولما رجعت الى بغداد سمعت بعض الانتقادات ضدها . الا أني كنت لا احبذ هذه الانتقادات واقول للمعارضين اتركوا الوزارة وشأنهـا وعاضدوها علـى العمـل .

« وكان من رايي بقاء جميل في الحكم بشرط ان يخـــرج بعض الاعضاء من وزارته وعلى راسهم مصطفى العمري الـــذي شاعــت اختلاساته ، واصبحت حديث الخاص والعام ، وقد بقيت على هـذا الراي اجاهر به أمام اصدقاء المدفعي كمحمود صبحي الدفتــــري وغــــيرهم .

« الا ان جميل ظل متمسكا بزملائه على الرغم من كل ما يشـــاع عنهم ، واعتبر من واجبه ان يحميهم حماية الصديق للصديق ، حتـى اخذت فكرة اسقاط الوزارة تختمر في النفوس ، واعتقدت انا أيضا بأن سياسة الترقيع مضى وقتها ، فالاجدر ان تؤلف وزارة قومية تجمع العناصر القوية في البلاد ، ولا بأس من دخول جميل فيها . وكنـت دائما اميل الى ان التبدل يتم بدون مداخلة الجيش بل بالتفاهم مـع رجـال السيـاســة » .

وعلى اية حال ، فان « الهاشمي » نسى ، او حاول ان يتناســى نقطتين عند هذه المرحلـة :

الاولى : كان من المستحيل احداث تبديل في الوضع عن طريـــق

اسقاط الوزارة الا بواسطة الجيش وهذه حقيقة ابتها فيما بعد تعاونه مع ضباط الكتلة القومية لهذا الغرض .

الثانية : لم يكن بالمستطاع ايجاد اي تفاهم مع (او بين) رجال السياسة ولناخذ على ذلك العداء بين « طـه » و « نـوري » و « الكيلاني » من جهة و « حكمت » و « المدفعي » من جهة اخـرى .

أجتماعـات

يشير « الصباغ » الى اجتماعات سرية كان قوامها ، بادىء الامر - كل من نوري وفهمي وصلاح الدين ، ثم شاركهم فيها « الهاشـمي » و « كامل شبيب » فيما بعد ، وان هذه الاجتماعات كانت تعقد في منزل « نوري » وان الاخير طلب منهم ان يكونوا اخوانا وان يكون « طـه » الوكيل عليهم والامين ، وتقرر ايضا ان يكون قيام الوزارات وتسلمها الحكم براي الجيش ، وبذلك يصبح الجيش هو المهيمن والمنظم فيسد الفراغ الذي حدث بوفاة الملك « فيصل الاول » الذي كان يسيطر على الوزارات وعلى التحزبات والمنافسات التي لا تنتهي في العراق . اما « طه » فيقول بتاريخ ١٣ تشرين الثاني ١٩٣٨ : « اجتمعت انـا ، ونوري ، وصلاح الدين ، وفهمي سـعيد ، وتباحثنـا في الحالـة وما يقتضي لها من عمل ، وفي المنهج لاصلاح العراق وخدمة القضيـة العربيـة » .

القشـة

وكانت « القشة التي قصمت ظهر البعير » كما يقال مبـادرة « المدفعي » الى اسناد منصب وزارة الدفاع ، وكان يشغله وكالة ، الى العقيد الركن « صبيح نجيب »(١٢) وكان هذا الرجل ضابطا لامعـا في الجيشين العثماني والعراقي ، الا ان خصومه اخذوا عليه انه كـان يمتاز بالغطرسة والتعالي ، وانه شرع بعد توليه منصبـه الجديد بالاستهانة بكبار الضباط ومعاملتهم بخشونة وهو امر لم يكن مألوفا في الجيش العراقي . ومما زاد الامر تعقيدا ان الوزير اخذ باستغـلال غياب قائد الفرقة الاولى ، العمري ، في اوربا فيقوم باجراء تنقلات بين الضباط . ومما زاد الامر تعقيدا اقتراح وزير المالية « ابراهيم كمال » على وزير الدفاع باحالة لفيف من الضباط على التقاعد وارتياح الاخير لهذا الاقتراح .



صلاح الدين الصباغ

وفي اوائل كانون الاول ، اعلنت وزارة الدفاع دعوة خريجي كلية الحقوق الى دورة ضباط الاحتياط وهي الدورة التي نص عليها قانون الدفاع الوطني . وعلى الرغم من ان هذه الدعوة شرعية في الواقع ، ولكنها كانت مجمدة من قبل ، فقرر لفيف ممن تشملهم الدعوة القيام بمظاهرات احتجاج على تقديم خريجي الحقوق على امثالهم من الدراسات العالية الاخرى ، وعين يوم ١٤ كانون الاول موعدا للقيام بهذه المظاهرات . وكانت الوزارة قد ضاقت ذرعا بما قامت به المعارضة من نشر الاشاعات والدعوة الى التظاهر ، فاستصدرت ارادة ملكية بتعطيل مجلس النواب لمدة شهر واحد لتقوم بما تعتقد انه سيكون مناسبا . ولم يلبث مجلس الوزراء ان اتخذ قرارا بالزام « اسماعيل الاغا » و « علي محمود الشيخ علي » و « داود السعدي » و « شاكر الوادي » و « جميل عبدالوهاب » و « علي غالب »(١٤) بالاقامة في اماكن نائية وبعيدة عن العاصمة .

ومعروف ان الاول والرابع والسادس هم من الضباط الذين شاركوا في تنفيذ انقلاب « بكر صدقي » ويبدو ان « المدفعي » تصور ان باقدامه على هذه الخطوة قد يتمكن من استرضاء الكتلة القومية داخل الجيش وبالتالي احتمال جذب « السعيد » و « طه » الى



صبيح نجيب

جانبه وان ذلك سيخفف من حدة الازمة ويقضي على روح المعارضـة . ويبدو ان المظاهرات قد جرت بالفعل ، وان كان ذلك على نطاق ضيق . لذلك قرر مجلس الوزراء الزام كل من « عبدالقـادر السـياب » و « رشيد عالي الكيلاني » و « طالب مشتاق » و « عبدالوهـاب محمـود » و « فائق السامرائي » وهم جميعا من الجناح المدنـي للاتجاه القومي بالاستقرار في مدن ورد ذكرها في القرار الصادر بتاريخ ٢٠ كانون الاول وهي بعيدة جدا عن مواطنهم الاصلية مع وضعهم تحت مراقبـة الشرطـة .

اشاعـات

وعلى اية حال ، فرغم كل هذه التطورات ، كان الضباط المقربـون من رئيس الوزراء يؤكدون له ، ولوزير الدفاع ، وجوب عدم الاهتمام بالضباط القوميين لضآلة تأثيرهم في الجيش مع علم « المدفعـي » ان الاربعة ، ومعهم العقيد « سعيد يحيى الخياط » كانوا يجتمعون مـع « سامي شوكت » و « تحسـين العسـكري »(١٥) تـارة في دار « السعيد » وطورا في منزل « طه » وكانوا ينتقدون سلوك الـوزارة القائمة ، وينسبون اليها الاخطاء في تصريف امور الدولة ، كما كانـوا يرون ضرورة ماسة في « تكوين » وزارة جديدة .

وبناء على مشورة اعوان « المدفعي » من كبار ضباط الجيش ، فقد اراد تطبيق « قانون منع الدعاية المضرة » بحق العقداء الخمسة وحتى « السعيد » و « طه » بالذات . فما كان من هؤلاء الا ان طلبوا من « الخياط » مقابلة « مصطفى العمري » ليتحقق منه عن الاشاعات التي سادت شتى الاوساط بشأن ذلك ، فلما تحقق العقيد من صحة هذه الاشاعات ونقل الامر الى زملائه العقداء ، اسرع هؤلاء الى معالجة الموقف بسرعة بالغة .

اجتمع العقداء الخمسة في غرفة « الصباغ » الذي كان يشغل منصب مدير الحركات في الجيش ، وذلك قبيل ظهر اليوم الرابع والعشرين من كانون الاول ووضعوا خطة محكمة لاسقاط الوزارة ، فعهد الى « محمود سلمان » ان يسحب كتيبة الخيالة التي كانت بامرته من « الوشاش » الى « الرشيد » وان يقوم العقيد « عزيز ياملكي »(١٦) باعداد سيارات لنقل قطعات مشاة من المعسكر الاول الى الثاني مع الذخيرة وعتاد المدفعية ه وما ان حل عصر نفس اليوم ، حتى كانت الخطة قد نفذت بنجاح وكتمان تام .

وكان « المدفعي » في دار صديقه « عبدالله صافي » عضو مجلس الاعيان ، حين وصل اليها « ياملكي » مبعوثا ومطالبا اياه بأن تتخلى وزارته عن الحكم في الحال بناء على رغبة الجيش ، وكان ذلك حوالي الساعة الخامسة مساء . ولما وجه رئيس الوزراء سؤالا الى « ياملكي » عما اذا كان اعوانه قد احيطوا علما بذلك ، اجابه الاخير بأن هؤلاء يتسامرون الان في النادي العسكري ولا علم لهم بما يحدث ، وعندئذ ابلغه « المدفعي » بأنه لا يريد ان تسفك دماء ابناء البلاد وسيستقيل . فذهب ياملكي الى دار الفريق « حسين فوزي » رئيس اركان الجيش واخبره بما فعله زملاؤه القادة ، وطلب منه الذهاب الى مركز الحركة في معسكر الرشيد فوافقه وذهب ليتولى قيادتها .

قضي الامر

واخيرا اضطر « المدفعي » الى الاتصال بنوري السعيد ، وطلب اليه ضمان الامن العام ، وهو شرط اساسي لاستقالة الوزارة ، فرد عليه هذا : ان الجيش كان قد سلب ثقته من الوزارة الهاشمية الثانية فاقالها في ٢٩ تشرين الاول ١٩٣٦ ، وانه سلب هذه الثقة من الوزارة

السليمانية فاقالها في ١٧ آب ١٩٣٧ ، وانه الان يسلب ثقته من الوزارة المدفعية الرابعة فعليها ان تترك الحكم ، ولاتكون سببا لاراقة الدماء .

وفي ساعة متاخرة من ذلك المساء ، جمع « المدفعي » مجلس وزرائه في داره ، وبعد ان بسط لزملائه الموقف الحرج في البلاد ، وكيف ان الوزارة اخذت اخذا ، سالهم الراي ، فقال فريق بوجوب التمسك بكراسي المسؤولية والقضاء على هذه الحركة وكان في مقدمة هؤلاء الوزيران « نجيب » و « كمال » وقال الاخر بوجوب ترك الحكم حفظا للامن وحقنا للدماء . وحلا للخلاف ، قرر « المدفعي » ايفاد « مولود مخلص » عضو مجلس الاعيان الى معسكر الرشيد ليقنع القادة بصرف النية عما كانوا قد صمموا عليه ، ولكن الوسيط اخفق في اداء مهمته ، فغادر المعسكر دون محاولة الاتصال مع رئيس الوزراء .

ويقول « رشيد الخوجة » رئيس الديوان الملكي : « بعد ان سلم العقيد عزيز ياملكي انذار الجيش الخطي الى المدفعي في دار العين عبدالله صافي وخرج ، استدعاني المدفعي من نادي السعدون واطلعني على نص الانذار لعرضه على الملك ، فسألته عن رأيه في الموضوع فاجاب انه يفضل الاستقالة على المشكلات . ثم ذهبت الى قصر الزهور وعرضت الامر على الملك ، فاستدعى اليه السيد محمد الصدر والسيد المدفعي ومولود مخلص لبحث الامر معهم . وما لبث ان اوفدني الى معسكر الرشيد لاستجلاء الحقيقة فوجدت العقداء مجتمعين فسألتهم عما عندهم وما يشكون منه فاجابوا بأنهم متذمرين من تصرفات وزير الدفاع العزي فقلت لهم ان من حسن الحظ او من سوء الحظ ان الوزارة استقالت فعلا ، وان من حسن الحظ ان يكون الضباط متفقين الان ولكن اخشى ان يأتي يوم لا يكون فيه مثل هذا الاتفاق ميسور فتكون النتيجة انقساما غير محمود »(١٧) .

اما « السويدي » فيقول ان الانقلاب كان سيقع حتما سواء استوزر العزي او لم يستوزر ، لان سياسة « اسدال الستار » التي سار عليها المدفعي لم ترض الساسة فتآمروا عليه .

قلق نوري

والان الى مصدر آخر وثيق الصلة بالاحداث هو « طه » : « اتاني الضابط الخيال صبحي العمري مساء ٢٤ كانون الاول واخبرني عن

الاجتماع في الوشاش . ثم وصلت جماعة الخفر الى داري مع الضابط محمود خورشيد ، وكانوا قد ارسلوا جماعة اخرى لدار نوري[١٨] فاجتمعت بنوري في داره فكان قلقا جدا بحسب عادته . وعاد سامي شوكت وتحسين العسكري من « الهنيدي » فذكروا ان الضباط متحمسون جدا . وان مولود مخلص ذهب اليهم واراد ان يتدخل فمنعوه . والذي علمناه ان حسين فوزي ذهب للملك وطلب اليه باسم الجيش استقالة الوزارة لان وزير الدفاع اخذ يتدخل في الامور ويشجع على الاخلال بالضبط . ثم اتى نوري وسامي شوكت وتحسين العسكري الى داري . واشتد قلق نوري للغاية حتى انه راح يفكر في سعي الحكومة لجلب القطعات من الخارج ، وانه يتوقع قيامها بتوقيفنا وحجته : لماذا لم تستقل الوزارة حتى الان ، فهي تريد ان تكسب الوقت .

« اخبرني حسين فوزي بالتلفون في ساعة متاخرة بان الوزارة قد استقالت ، وان البلاط يطلب منه ان يذكر اسم الشخص الذي يتقلد رئاسة الوزارة ، فقلت امتنع عن ذكر الشخص واترك ذلك لشخص الملك . وكان نوري حاضرا يسمع المخابرة . وفي الاخير هدأ روعه ، الا انه لم يجرأ على النوم في داره ، فنام في دار اخرى »[١٩] .

توضيحات

يقول « الصباغ » في مذكراته : « اي وزارة اسقطها الجيش ؟ وهل انقلبنا الا على اولئك الذين نصرناهم على الحق فغرروا بنا وخدعونا ، فنبذناهم لما اختبرناهم واطلعنا على اسرارهم وكشفنا سوء ما يضمرون . لقد تدخل الجيش في اسقاط جميل الذي جاء به الى الحكم بعد قتل بكر صدقي وسقوط حكومة سليمان . واستمر جميل في رئاسة الوزارة زهاء سنة ونصف ثم تدخل الجيش في اسقاطها للاسباب التالية :

١ ـ سعي جميل واعضاء وزارته وفي مقدمتهم وزير الدفاع صبيح نجيب ، لشق الجيش وبذلك يحتفظون بالتوازن ويسيطرون على الجيش ، وهذا العمل يلقى ترحيب الانكليز وتشجيعهم لانهم ينشدونه دائما . وقد اعترف صبيح نجيب بهذا المسعى ويشهد على ذلك حسين فوزي واسماعيل نامق وابراهيم الراوي وغيرهم من القادة الذين اشتركوا معنا وايدوا حركتنا . وليسأل في ذلك نوري وطه اللذان قالا انهما من حزبنا .

٢ ـ تضعضع مركز وزارة جميل بعد ان اضاع العراق شطرا من

اراضيه في شط العرب ، فقد استنكر الشعب والجيش هذا الامر الذي قامت به وزارة جميل وموقفها الضعيف امام الانكليز واستاء منه المغفور له الملك غازي ».

٣ ــ احجام جميل عن مد ثورة فلسطين بالمساعدة ، وقد اطلعت على ذلك بنفسي في احدى العمليات . وجميل صديق حميم لحييم ناثانيال ذلك الصهيوني الواسع الثراء .

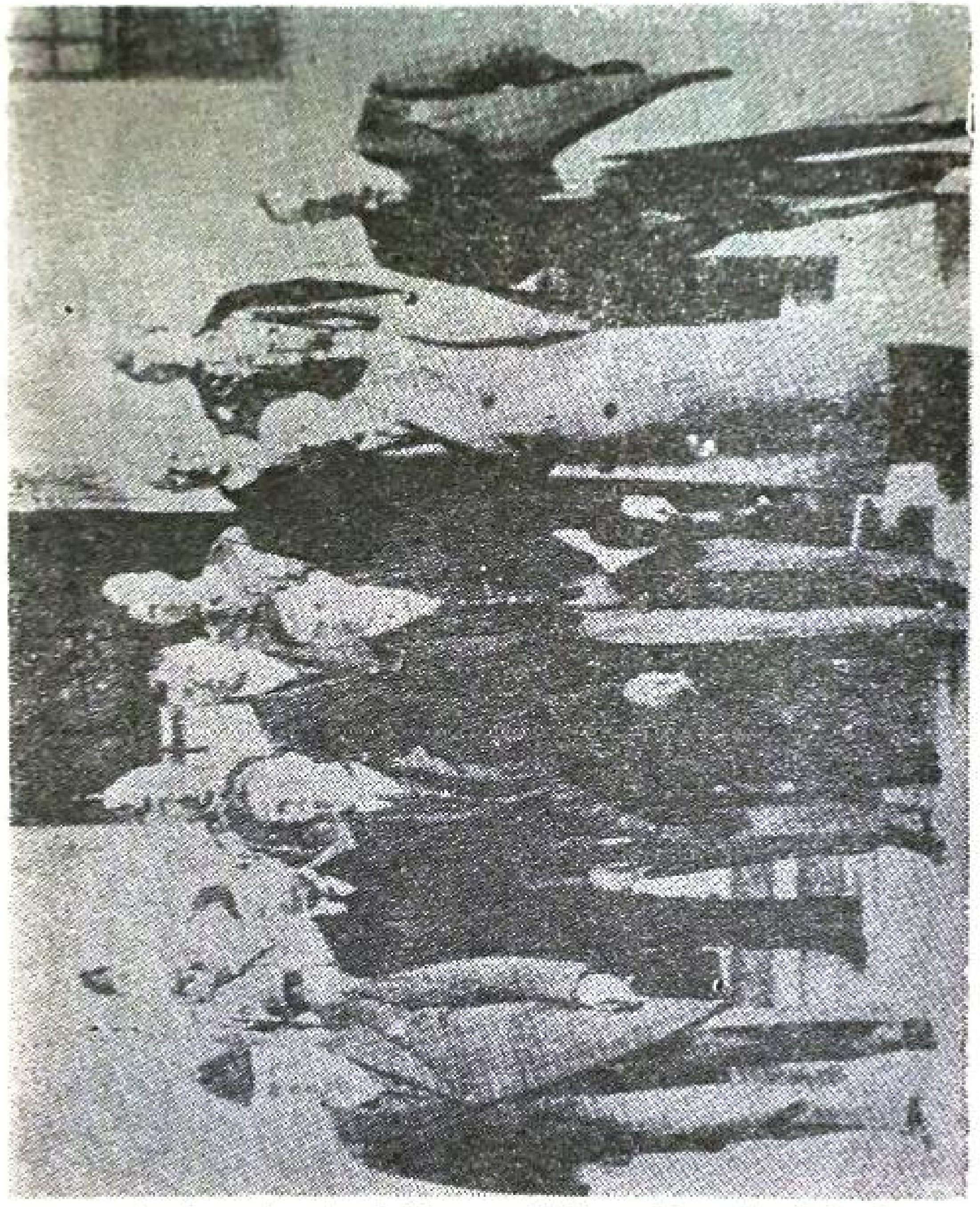
٤ ــ تنكر صبيح نجيب لوعوده وايمانه التي اقسمها يوم كان يتلهف لضمنا اليه ، او بالاصح الى زمرته الدكتاتورية التي الفها بالاشتراك مع توفيق السويدي وابراهيم كمال . فلما اصبح صبيح وزيرا للدفاع انقلب علينا واخذ بمبدأ فرق تسد .

٥ ــ رفض جميل ان تسند وزارة الدفاع لطه الهاشمي بدلا من صبيح نجيب . وفي مسامرة اقامها اللواء الاول في معسكر الرشيد لم يتورع امير اللواء نظيف الشاوي عن الطعن بطه الهاشمي على الرغم من مكانة هذا الاخير في الجيش .

٦ ــ حنث جميل بالعهود التي قطعها على نفسه بأن يحقق للجيش طلباته التي دونت على قائمة سلمتها بنفسي الى جميل في بيته يوم عاد الى الى العراق ليؤلف حكومته بعد ان استقبلته في المطار المدني ببغداد(٢٠) .

تبرير

وكان الجيش قد اراد ان يشكل « الهاشمي » الوزارة بعد استقالة « جميل » الا ان الاول رفض ذلك واصر على ان يطلب الى « السعيد » تشكيل الوزارة . ولكن ، كيف استطاع السعيد ان يكون مقبولا لدى الكتلة القومية في الجيش ؟ علينا ان نذكر ان الحركة القومية كانت تستهدف خارج العراق ، في الفترة ما بين الحربين العالميتين ، هدفا له شقان : تحرير سوريا وتحرير فلسطين ، وان « السعيد » لم يكن يتردد عن مضايقة فرنسا لاجل سوريا في هذه الفترة التي شهدت تنافسا واختلافا بين السياستين البريطانية والفرنسية في منطقة الشرق الاوسط . فهو اذن كان يستطيع ارضاء شق من شقي اهداف الحركة القومية . اما بالنسبة الى فلسطين فكان « نوري » يدعو الى الاكتفاء بالاساليب الدبلوماسية . وهناك سبب آخر لرفض « طه » تشكيل الحكومة يعود الى قلة طموحه السياسي واعتقاده « بأن لنوري شخصية عالمية ويستطيع ان يطمن الانكليز » حسب قوله .



وزارة نوري السعيد التي تألفت بتاريخ ٢٥/١٢/٣٨

وعلى اية حال ، فان « الهاشمي » يقول بتاريخ ٢٦/١٢/٣٨ ان اول عمل قام به رئيس الاركان « حسين فوزي » له باعتباره وزير الدفاع في حكومة « السعيد » انه قدم له كتابا يطلب فيه احالة « الشاوي » و « التكريتي » و « بهاء الدين نوري » و « يوسف العزاوي » على التقاعد وهذا ما تم فعلا ولم يعد اي واحد منهم الى الجيش في اعقاب ذلك .

هوامش الفصل الرابع

(١) كان العميد (الفريق اول) طه الهاشمي رئيس اركان الجيش قد اوفد الى اوربا للبحث عن مصادر لتسليح الجيش بدلا من اقتصار ذلك على بريطانيا .

(٢) جرت العادة بتكليف الساسة بتاليف الوزارات شفهيا ، بيد ان « حكمت » اصر على ان يكون ذلك خطيا لتبرئة ذمته ، فيما بعد ، على انه كان مشاركا في الاعداد للانقــلاب .

(٣) الرشــيد حاليا .

(٤) المقابلة في ٧٥/١١/١٠ .

(٥) في موقع متنزه الزوراء .

(٦) كان الفريق « عبداللطيف نوري » في اوربا للاستشفاء فلما قتل « بكر » صدرت ارادة ملكية بتعيينه رئيسا لاركان الجيش فبقي منصب وزير الدفاع شاغرا . بيد ان « نوري » لم يعد الى العراق اذ احالته الوزارة الجديدة على التقاعد .

(٧) احد كبار تجار « بغداد » .

(٨) عبدالرزاق الحسني ، تاريخ الوزارات العراقية ، الجزء الخامس ، ص ٤ـ٥ .

(٩) من عائلة « توحلة » المعروفة في الموصل . احد ضباط « بكر » ويقال انه اشترك في قتل « العسكري » بناء على اوامر الاول .

(١٠) من الواضح ان « المدفعي » كان يخشى من تآمر « السعيد » عليه وهذا ما ثبــت فعلا فيما بعد وحالفه النجاح .

(١١) ص ١٠٥ من محاضر مجلس النواب لعام ١٩٣٧ .

(١٢) ص ١٢١ من المصدر .

(١٣) بتاريخ ٢١ تشرين الاول ١٩٣٨ .

(١٤) الملقب « الاعرج » وهو من ضباط الانقلاب .

(١٥) شقيق « جعفر العسكري » .

(١٦) كان على علاقة وثيقة بالعقداء الخمسة .

(١٧) جريدة « المواطن » في شباط ١٩٥٢ .

(١٨) وكان العقداء قد بالغوا في اتخاذ تدابير الحيطة والحذر ، فأرسلوا فصــيلا مــن الجند المسلح الى دار « الهاشمي » واخر الى دار « نوري » لحمايتها ومنع وصول الاذى الى الساكنين فيهما .

(١٩) المذكرات ، ص ٢٩٥ ـ ٩٦ .

(٢٠) فرسان العروبة في العراق ، ص ٦٨ ـ ٦٩ .

الفصل الخامس

هكـذا خلـع فاروق

في ٢٣ يوليو (تموز) من عام ١٩٥٢ حققت الثورة المصرية التـــي عرفت بهذا الاسم مرحلة شبه حاسمة عندما تم الاستيلاء على السلطة وارغام الملك « فاروق » على اسناد رئاسة الوزارة الى « علي ماهر » الذي كان مغضوبا عليه من جانب القصر . ولم تمر الا ثلاثة ايام حتى اكتمل الحسم عندما اجبر « فاروق » نفسه على التنازل عن العرش لمصلحة ابنه الطفل « احمد فؤاد » .

كان البلاغ الاول الذي اذيع في الساعة السابعة من صباح يـــوم الثورة يحمل اسم « اللواء اركان حرب محمد نجيب قائد عام القوات المسلحة » ولم يكن هناك مثل هذا المنصب في الجيش المصري بيد انه استحدث بناء على قرار من جانب « اللجنـة المركزيـــة للضـــباط الاحـــرار »(١) .

وطوال ستة اسابيع ، لم تستطع اية صحيفة او مجلة اوربيـــة او امريكية الحصول على مقابلة شاملة مع « نجيب » باستثناء الاجابة على بعض الاسئلة المتفرقة بيد ان « لاري جونز » منـدوب مجلـــة « لايف » الامريكية المصورة وذائعة الصيت ، تمكن من حمل اللـــواء على ان يروي له قصة ثورة ٢٣ يوليو ، ومن الطبيعي ان ذلك العـــدد من المجلة المذكورة قد منع من دخول « العراق » في العهد الملكي ، بيد اننا استطعنا الحصول مؤخرا على نسخة منه لدى احد باعة المجلات القديمة في « ســـوق السراي » .

وهناك ثلاث نقاط لابد من التأكيد عليها قبل تقديم القصة :

اولا : ان « نجيبا » رغم كونه قد اصبح رئيسا لمجلس الثـــورة الذي حل محل « اللجنة المركزية » في نفس اليوم ، لم يحاول كشـــف



محمد نجيب وعلي ماهر

النقاب عن اسماء اعضاء المجلس وحتى عن وجوده اصلا ، وان اصبحت هذه الحقيقة علنية بعد الغاء النظام الملكي .

ثانيا : كان « نجيب » قد تولى منصب رئيس الوزراء ايضا في اعقاب استقالة « علي ماهر » ولهذا قالت المجلة تقديما للقصة : « استطاعت حكومة الرئيس ، في المدة الوجيزة التي اعقبت

الانقلاب(٢) ، ان تفي بالكثير من وعودها . فاصدرت قانون الاصلاح الزراعي(٢) وتحديد الملكية الزراعية . وهي الان في طريقها الى تخفيض الضرائب التي تثقل كاهل الفقير ، وتطهير الادارة الحكومية من الرشوة والفساد اللذين شاعهما العهد السابق . كما انها وعدت باعادة الحياة الدستورية واجراء الانتخابات في شباط القادم » .

ثالثا : وبغض النظر عن التطورات التي اعقبت ذلك ، واقصاء « نجيب » من مناصبه اثر خلافات داخل « مجلس الثورة »(٤) وبروز « جمال عبدالناصر » باعتباره القائد الحقيقي لتنظيم الضباط الاحرار وثورة ٢٣ يوليو ، فان هذ القصة تبقى وثيقة لها خطورتها واهميتها من الناحية التاريخية .



اول صورة تظهر للعالم وتمثل «محمد نجيب» و «جمال عبدالناصر» وذلك في ايلول ١٩٥٢

باعوا انفسهم

والان الى رواية اللواء : لقد غرست بذور كفاحنا في سبيل الحرية منذ سنوات عديدة ، لكنها لم تثمر ولم تعط اكلها الا الان ، والان فقط بعد صبر مرير وانتظار طال امده .

كنا حفنة من الرجال امتلأت قلوبهم بالايمان ، كما افعمت نفوسهم بالخجل والمذلة من الهزيمة التي فرضت علينا في حرب فلسطين .

ونحن كجنود للوطن ، لم يكد يدعونا الواجب عبر صحراء سيناء حتى لبينا النداء ، وتقدمنا كمصريين مخلصين لرد العدو الذي يهدد حدودنا الشرقية فيما وراء قناة السويس .

وبينما كنا نقاتل فوق رمال الصحراء المحرقة علمنا ان العدو لا يكمن في الظلام امامنا فحسب ، ولكنه قابع كذلك في بلادنا ، خلف ظهورنا ، في صورة خونة من لحمنا ودمنا .

كانت الاسلحة ترد لجنودنا ، ولكن تنقصها بعض الاجزاء الهامة ، وكانت الذخيرة تصل الينا آخر الامر ، ولكنها لا تنطلق .

وكانت المواد الطبية اللازمة للجرحى ، وما اكثرهم ، ترد الينا على دفعات وبكميات ضئيلة .

وكثير من معدات الميدان التي كان الجنود في اشد الحاجة اليها ، لم تصل اطلاقا .

والحقيقة ، ان الاعداء كانوا يحيطون بنا من كل جانب . والمخاوف التي طالما راودتنا واحسسنا بها احساسا مبهما ونحن في الثكنات ايام السلم ، اصبحت حقيقة واقعة ، واصبح واضحا لنا عن يقين ان اولئك الذين يديرون امور الحملة قد باعوا انفسهم ومواطنيهم بل واولادهم للشيطان .

صورة مصر

ان الفساد الذي نشأ فيه هؤلاء ورضعوا لبانه ، والشر الذي يكمن في نفوسهم ، كل ذلك قد شجعهم على الاثم واغراهم بخيانة وطنهم .

ولكنه ، كذلك قد اظهر الى الوجود جماعات صغيرة من الضباط اتحدوا فيما بينهم على مقاومة الخونة ، واشتدت عزيمتهم على الانتقام لزملائهم الذين استشهدوا وعلى تحرير وطنهم من براثن اولئك الذين يتجرون بشرفهم وبأرواح مواطنيهم .

وقد عز على نفوسنا ان يتمرغ وطننا في الوحل ، وقررنا ان نهب ارواحنا لغاية واحدة مقدسة ، هي انقاذ هذا الوطن ورد اعتباره اليه ، وانتشال كرامته وهيبته .

ومع ذلك . فقد حاولنا قبل ان نبدأ حركتنا ان نصحح الامور ونغير الاوضاع . فوزعنا على الناس نشرات اوضحنا فيها ما آل اليه امر الوطن وما يكتنف حاضره ومستقبله من ظلام . بل وحاولنا ان نحـذر الملك ونـرده الى صوابـه .

ولكن فاروقا استنجد بكل ما لديه من حول وبطش ، وبما يحفـزه ويحيط به من قوى الشر ، لكي يطفيء شعلة الحق ويقضي على امـل الحرية . واستمرت بطانته الفاسدة في بطشها وطغيانها ومضت تحارب الفضيلة وتحمي الرذيلة ، حتى اصبح الحكم رمزا للرشـوة والفسـاد واشباع الشـهوات .

لقد اطاحوا بسمعة مصر ، وابرزوها امام العالم في صورة البلد الذي لا يستحق الاستقلال ، بل ولا يستحق اي نوع من انـواع الحيـاة الكريمة النظيفـة .

رجل مشبوه

وبالرغم من ذلك كله ، لم يكف صوتنا الضعيف من الدفاع عن هذا الوطن ، وظلت قلوبنا عامرة بالايمان ، مليئة بالثقة في قدرتنا على مواجهـة قوى الشر والحاق الهزيمة بها ، ولكن اذن فاروق كانت كالصخر وعينه كانت مثل الثلج فهزأ بالنذر ووصف المنذرين بأنهم صبية صغار .

ثم وقع حادث ، بسيط فقد اجريت الانتخابات لاختيار اعضـاء مجلس ادارة نادي الضباط ، وحاول الملك ان يسيطر حتى على هـذه الناحية من حياتنا ، فرشح لرئاسة مجلس الادارة اللواء حسين سري عامر(٥) ، وهو رجل ذكر اسمه مرارا في حوادث تهريب المخدرات وبيع اراضي الحكومة باساليب غير مشروعة ، وتساءل كثير من الضباط عن مدى صلته بفضيحة الاسلحة الفاسدة في حرب فلسطين .

رشح الملك هذا الرجل لرئاسة مجلس ادارة نادي الضباط ، ولكننا رفضنا الانصياع لذلك ولم تنفذ رغبة فاروق .

وهاج الملك وماج ، وجرح كبرياءه انه توجد في مصر جماعة تخالف ارادته وتقاوم رغبته .

وكان رد الفعل انه بدأ يكيد للضباط ليوقع بهم ويقصـيهم عـن

الجيش ، فامر ان يعقد ضباط النادي جمعيتهم العامة لتعديل قانـون النادي على نحو يرضى هواه ويحقق رغباته .

ولكنه مني بهزيمة ثانية اودت بصوابه واطاحت باتزانـه ، فقـرر البطش بجميع معارضيه ، وحمله الغضب على حل مجلس ادارة النادي الذي انتخب انتخابا صحيحا ومشروعا .

وكان ذلك ايضا حادثا بسيطا ، ولكنه كان بداية النهاية .

احتياطـات

ولم يكن بوسعنا ، نحن ابناء مصر ، الا الشروع بالتأهب لتنفيذ عمل حاسـم وخطـير .

وكنا نواصل اعمالنا الاعتيادية في وحداتنا اثناء النهـار ، حتـى اذا اقبل المسـاء ، عقدت كل جماعة صغيرة من الضباط اجتماعا لدراسـة الموقف وتحديد الدور الذي يقوم به كل منهم عندما تحل ساعة الصفر .

وكانت الخطة غاية في البساطة والسهولة ولكنها كذلك غاية في القوة والحزم والتصميم .

وقد اتخذت كل الاحتياطات لمواجهة كل خطوة يخطوها فـاروق واستقرت عزيمتنا على البدء بالعمل حالما يحاول بانانيته ودكتاتوريتـه الوقوف في وجه المصالح الحقيقية للبلاد ، واقسمنا على ان نحرر البلاد من الطغيان والمذلة والعار او نموت .

واطلقنا على جماعتنا اسم « الضباط الاحرار » وكان اكثر الاعضاء من صغار الضباط وليس بينهم ، فيما عـداي ، مـن تجـاوز رتبـة العقيـد(٦) .

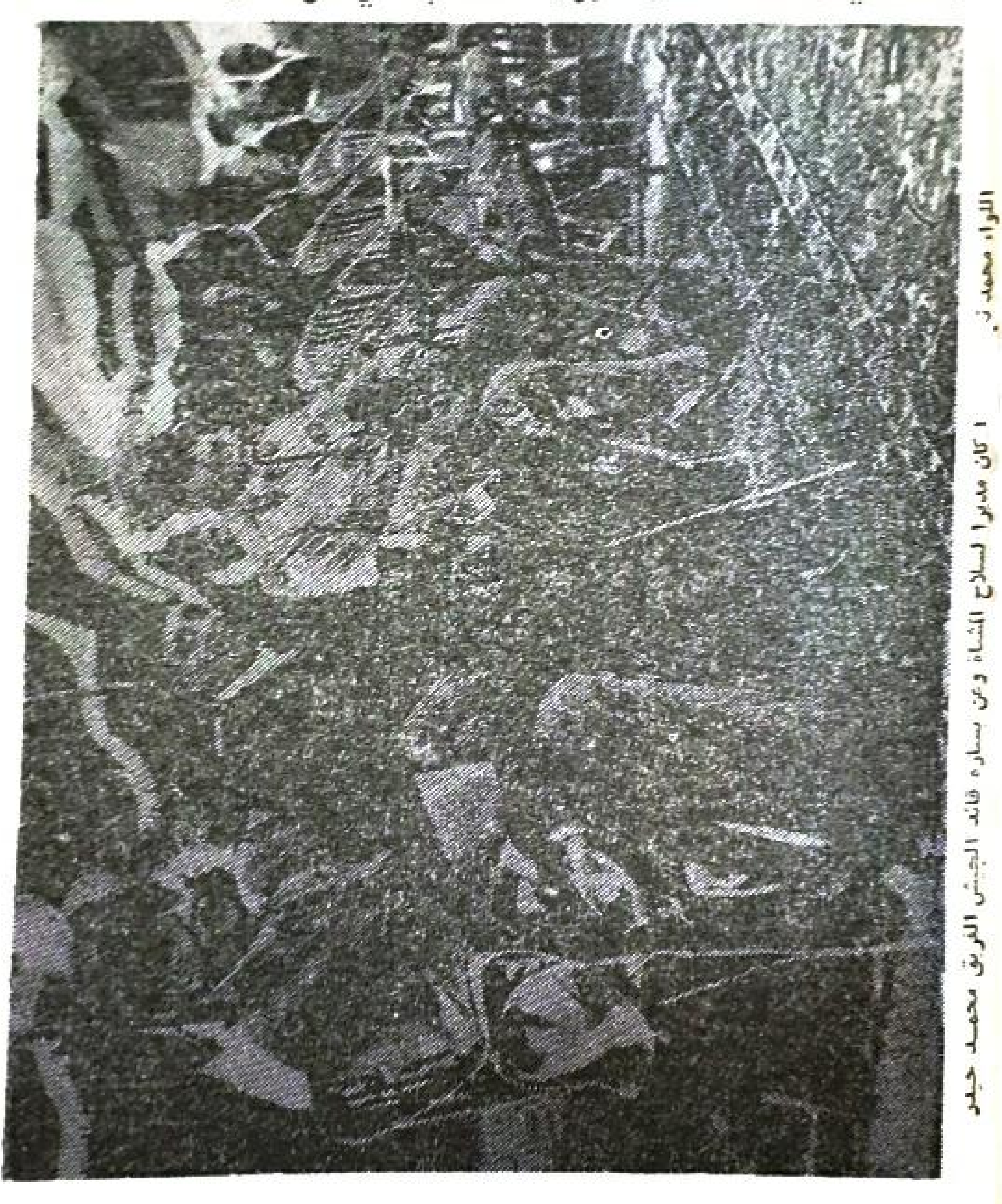
ولم يكن بيننا احد ينتمي الى اي حزب سياسي ، او اية هيئة دينية كالاخوان المسلمين مثلا .

وقد نوقشت معي تفاصيل خطة الانقلاب ، ثم تركت بين تسـعة ضباط عرفوا باسم « اللجنة المركزية » وحتى انا لم اكن اعرف احدا من هؤلاء التسعة وان كنت قد تبينت فيما بعد ، حين اسندت الي القيادة

العامة للقوات المسلحة ان ضابط الاتصال الذي كان يتصل بي هو احد اولئك التسعة .

اختبار دقيق

وبفضل هذا الحذر الشديد امكن تحقيق اقصى حد من الطمأنينة والامان في وقت كانت فيه عيون الملك منبثة في كل مكان .



اللواء محمد ن... ا كان مديرا لسلاح المشاة وعن يساره قائد الجيش الفريق محمد حيدر

ومع هذا لم نكن حتى ذلك الوقت قد ارتبطنا فيما بيننا بقسم يفرض علينا الكتمان ويحمينا ويحمي خطتنا من الافتضاح .

كان كل اعتمادنا على شعور كل ضابط بما يفرضه عليه شرفه وكرامته والتزاماته الادبية .

ولما اخذت الحركة في الاتساع ، بدانا نعجم عود كل ضابط ونختبره اختبارا دقيقا قبل ان نضمه الى صفوفنا ونضع ثقتنا فيه .

ان في كل امة وفي كل جيش كثير من الاشخاص الذين لا يمكننا الاعتماد عليهم والركون اليهم الا اذا اقنعتهم بان النصر آت لا ريب فيه . ولقد قرات عن ثورة امريكا في سنة ١٧٧٦ ان عدد الذين كانوا على استعداد للمجازفة بحمل السلاح دفاعا عن حريتهم واستقلالهم لم يكن يتجاوز ثلث مجموع سكان المستعمرات .

وكان الاتصال باولئك الذين لا نثق بهم كل الثقة يحدث بطريق غير مباشر .

فلا يذكر شيء عن خطة معينة ، ولا عن ضباط اللجنة المركزية الذين كانوا منهمكين طول الوقت في تحديد كل خطوة يمكن اتخاذها متى حانت الفرصة .

لقد كانت كل جهودنا مركزة على جس النبض ، ثم الايحاء ثم اعداد الضابط نفسيا وروحيا لليوم الذي يستطيع فيه المساهمة في تحطيم الاصابع الفولاذية التي غرسها فاروق في عنق الجيش والوطن .

كان تنفيذ خطة التحرير ، كما وضعتها « اللجنة المركزية » لا يتطلب غير عدد قليل جدا من الرجال ، ذلك انه لم يكن هناك عدو حقيقي كما هو الحال في المعارك . اذ كان اهم شيء هو الاستيلاء على المراكز الرئيسية في الجيش واستبدال كبار الضباط المشكوك فيهم بآخرين يختارون بعناية تامة ، وعزل بعض مناطق القاهرة في ذات الوقت لحماية تقدمنا نحو الاهداف المحددة .

وكنا قد نجحنا في تشكيل لجان محلية من ضباط مخلصين معدودين في كل فرع من فروع القوات المسلحة ، وهكذا كانت فرق المدفعية والدبابات والمشاة وكذلك البحرية والسلاح الجوي ممثلة كلها في الحركة ، والجميع ينتظرون الاشارة للتحرك والتنفيذ .



ـ فاروق ومن يساره ـر وزرائه « محمود النقراشي » في صورة عام ١٩٤٨

مسألة غريبة

وفجأة . مرت البلاد بأزمتين سريعتين . فقد حدث في ٢ تموز ان كلف الملك السيد حسين سري(٧) – وهو من الساسة المعروفين باعتدالهم بتاليف الوزارة .

وكان حسين سري يعرف شعور بعض رجال الجيش نحوي ولاسيما اولئك الذين حاربوا معي في فلسطين(٨) ، فطلب من الملك تعييني وزيرا للدفاع(٩) ، ولكن القصر لم يوافقه وحينئذ رفض حسين سري البقاء في منصبه ، فسقطت وزارته في ٢١ تموز .

وفي ذلك اليوم نفسه ، كلف الملك السيد احمد نجيب الهلالي بتأليف الوزارة فوقع الاختيار على اسماعيل شيرين ليكون وزيرا للدفاع . واسماعيل شيرين هو صهر « فاروق » ومن الذين فرضوا على الجيش .

وكان هذا الاختيار احدى غرائب الزمن . ولكن « اللجنة المركزية » لم تر فيه كذلك فحسب ، بل رات فيه فرصة من السماء لبدء العمل . فاصدرت اوامرها الى كل جماعة من جماعات الضباط الاحرار في جميع فروع القوات المصرية المسلحة ، وحددت الساعة الواحدة والنصف من صباح يوم ٢٤ تموز موعدا للشروع بالتنفيذ .

ولكن الشائعات قد انتشرت في جميع انحاء مصر خلال الايام الثلاثة او الاربعة الاخيرة عن وجود تذمر في الجيش ، لذلك قررت اللجنة تقديم موعد بدء التنفيذ يوما كاملا ، فجعلته الساعة الواحدة والنصف من صباح ٢٣ تموز .

وبدأ ضباط مصر الشبان يتحركون في ثبات وثقة ، واخذوا يفدون الى معسكراتهم فرادى ولديهم الاوامر بأن يكونوا على استعداد في مراكزهم في الساعة الحادية عشرة والنصف من مساء يوم الثلاثاء ٢٢ تموز .

ريبة

وفي الساعة الحادية عشرة تماما ، علمت اللجنة المركزية ان هناك من الاسباب ما يحملها على الاعتقاد بأن الخطة قد افتضحت .

فقد صادف لاحد الضباط وهو يغادر بيته ان قابله رجلان ارتاب في امرهمـــا .
ولاحظ الرجلان انه يحمل سلاحه فاستوقفاه لحظـــة . وراحـــا يستوضحانه الامر على شكل اسئلة عرضية .

ولقد احس الضابط بعد انصرافهما ، انه لم يستطع من فـــرط الاضطراب والانفعال ان يلتمس لخروجه مسلحا في تلك الساعة عـــذرا وجيها يقنعهما كل الاقناع وان اجاباته العرضية لم تكن ردا مقبولا علـــى اسئلتهمـــا العرضـــية .

وكان الضابط صادق الاحساس والشعور ، اذ في اللحظة التي كان يعبر فيها عن مخاوفه وشكوكه ، كان الرجلان يتصلان باللـــواء حســـين فريد رئيس اركـــان الجيش ويبلغانه تفاصيل الحادث .
ولكن ضباط اللجنة المركزية كانوا يؤمنون بحتمية نجاح خطتهـــم . فقرر التزام جانب الصبر .

وكانت ساعة العمل قد ازفت والضباط الذين يعملون تحت امرتهم يتحركون في شتى انحاء القاهرة ، وهم في الانتظار .
كانت الخطة الرئيسية تقضي بتقسيم القاهرة الى اربع مناطق ، وقد اختارت اللجنة المركزية لكل منطقة فريقا يتألف من اربعـــة ضـــباط وجنديين . وزود كل فريق بسيارة جيب وسيارة كبيرة مغلقة .

ولما كان اول هدف ترمي اليه الخطة هو تنحية ضبـــاط القيـــادة ، ولاسيما قادة الفرق المدرعة ومنعهم من الاتصال بوحداتهم ، فقد كانت مهمة كل فريق هي ان يعتقل ضباطا معينين في المنطقة المحددة له .
وكان متوسط عدد هؤلاء الضباط المطلوب اعتقالهـــم يتـــراوح بـــين ٨ و ١٠ ضباط في كل منطقة .

وكان من المتفق عليه ، انه بمجرد وصول الفريق الى بيت احـــد الضباط المطلوب اعتقالهم ، ان يدخل اثنان من الضباط الاحرار بيت الضابط لاعتقاله بينما يبقى الضابطان الاخران مع الجنديين في الخـــارج للمراقبـــة والحراســـة .

احتـــلال

وعندما يتم الاعتقال ، يوضع الضابط المعتقل في السيارة المغلقـــة ويبقى فيها تحت الحراسة حتى يتم اعتقال سائر الضباط في المنطقـــة

كلها . ومن ثم تنطلق بهم السيارة الكبيرة المغلقة الى قسم الثكنات بالكلية العسكرية ، حيث يحتفظ بهم هناك الى ان يتم تنفيذ الخطة كلها .

فلما حانت ساعة العمل ، نفذت الخطة تنفيذا تاما على الوجه الاكمل .

وكانت ثمة وحدات تتجول حول القاهرة لتنفيذ المرحلة الثانية من مراحل الخطة ، فضرب جنود مختارون بعناية تامة حصارا دقيقا حول ثكنات الجيش ، تعاونهم في ذلك سيارات مدرعة كانت على اتصال دائم ببعضها بعضا بواسطة اللاسلكي ، وكان من المهم جدا ان يمنع اي ضابط لا يحمل كلمة السر من الوصول الى وحدته او كتيبته حيث يحتمل ان يصدر اوامر مضادة .

اما الجنود انفسهم ، فكانوا يجهلون ان الاوامر التي تلقوها ونفذوها انما صدرت من الضباط الاحرار ، كما كانوا يجهلون تماما انهم قد شرعوا باحداث انقلاب .

وقام المشاة تعاونهم السيارات المصفحة باحتلال محطة الاذاعة في القاهرة(١١) والدائرة الرئيسية لهواتف العاصمة ومحطة السكك الحديد ومقر قيادة الجيش .

وصدرت الاوامر للدبابات باحتلال المراكز الستراتيجية داخل العاصمة ، والقيام بمظاهرة لابراز قوتها وبطشها .

والواقع ، اننا لم نكن نتوقع اية مقاومة ، ولكن كان من الحكمة التظاهر بالقوة والبطش بمعونة القوات المدرعة لمنع ما يحتمل حدوثه من قلاقل .

وقام المشاة مع القوات المدرعة ايضا بمحاصرة مطارات القاهرة : فاغلقوا مداخلها لمنع غير المرغوب فيهم من دخولها . ولم تقع حوادث اطلاقا ، وجلت القوات عن مراكزها في الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم ، فلم تحاصر المطارات الا خلال الساعات الاولى من الصباح حيث يشتد ضغط العمل عادة .

مقاومة شكلية

وفي هذه الاثناء ، حققت حركتنا انتصارا كبيرا غير متوقع ، ذلك ان اللواء حسين فريد ، رئيس اركان الجيش المصري ، ما كاد يتلقى

معلومات المرشدين اللذين صادفا الضابط وقت خروجه من بيته حتى اتصل بالعميد(١٢) حسن حشمت قائد القوات المدرعة وامره بالتحقق عما اذا كان هناك اي نوع من التذمر بين رجاله .

وهكذا ، القى رئيس اركان الجيش بنفسه بين ايدينا بدلا من ان يتصل هاتفيا بثكنات القوات المدرعة او يصدر تنبيها او تحذيرا .

وما ان اقترب العميد حسن من الثكنات حتى اعتقل ونقل الى الكلية العسكرية .

واعتقل كذلك بنفس الطريقة اللواء علي نجيب قائد منطقة القاهرة وهو اخي .

ومن الامور الطريفة بهذا الشأن ان رئيس اركان الجيش نفسه اعتقل في مقر قيادته ولكن بعد مقاومة شكلية ابداها حراسه واسفرت عن اصابة اثنين من جنودنا بجراح بسيطة ، ولم تطلق رصاصات اخرى اثناء الاستيلاء على القاهرة .

على ان ضباط اللجنة المركزية ما كادوا يعلمون بنجاح هذه المراحل من الخطة ، حتى واجهتهم مشكلة على جانب عظيم من الاهمية ، فقد ارادوا اخطار البعثات السياسية الاجنبية في القاهرة بأن ليس في الامر ما يستوجب قلقهم وان الحركة لا تعدو ان تكون عملية تطهير داخلية كان الجيش المصري في اشد الحاجة اليها منذ زمن بعيد(١٣) .

ولكنهم كانوا جميعا من صغار الضباط وليس لاحدهم اي اتصال مباشر بأحد من الاجانب .

واخيرا تذكر احد الضباط انه قابل رجلا امريكيا في احدى المناسبات الاجتماعية منذ عهد قريب .

كان هذا الامريكي هو الكولونيل ديفيد ايفانس الملحق الجوى بالسفارة . وهكذا قيض لهذا الضابط ان يكون اول اجنبي تخطره اللجنة المركزية بالانقلاب .

وكنا نعلم ان « جيفرسون كافري » السفير الامريكي موجود بالاسكندرية في ذلك الوقت ، ولو انه كان في القاهرة لاتصلنا به شخصيا واخطرناه بالحركة وقدمنا له الضمانات المطلوبة بأن الحركة داخلية رغم ان احدا منا لا يعرفه .

مـن العبـث

وقع في الساعة الرابعة من صباح الاربعاء ٢٣ تموز حادث طريف اكثر منه خطير .

كان ضباط اللجنة المركزية قد اتصلوا بي هاتفيا في داري وطلبوا الي تولي القيادة العامة للقوات المسلحة(١٤) ، ولم اكد اخبرهم بقبول ذلك واضع السماعة جانبا ، حتى دق جرس الهاتف مرة اخرى .

كان الاتصال الهاتفي هذه المرة من الاسكندرية وكان المتحدث احمد مرتضى المراغي وزير الداخلية في وزارة احمد نجيب الهلالي .

قال لي انه سمع بوجود حركات غريبة في القاهرة ، وسألني أن اتفضل بالخروج للتأكد من حقيقة الامر ، وهل هي على جانب من الخطورة ، وطلب مني أن اوافيه بالنتيجة هاتفيا(١٥) .

فأجبته :

ــ حاضر .

ووضعت السماعة جانبا ، وخرجت لاتولى قيادة الحركة . وخيل الي ان من العبث اضاعة اموال الدولة في الاتصال به هاتفيا ، لان وزارة الهلالي سقطت بعد ظهر ذلك اليوم .

كان من الواضح في الساعة السابعة من صباح يوم الاربعاء ٢٣ تموز ان التدبير نجح الى أبعد حدود النجاح وان الضباط الاحرار قد سيطروا على القاهرة سيطرة تامة وان كل شيء هادىء تماما .

وهكذا اذيع باسمي من محطة الاذاعة بيان الى الشعب المصري ينبئه بالحركة ، وينذر دعاة الفتنة بأن جنود الجيش لديهم اوامر صريحة باطلاق الرصاص فورا على كل من يحاول السلب والنهب واثارة القلاقل . ويطمئن الاجانب في القاهرة الى ان ارواحهم وممتلكاتهم في امان تام .

المرحلة الثانية

ولازالة كل شك حول جدية الانذار ، طلبنا الى القوة الجوية القيام منذ الصباح الباكر بحركة استطلاع مستمرة في سماء القاهرة .

ووضعت جميع الطرق المؤدية الى القاهرة سواء من الصحراء او

وراحت ست طائرات من قاذفات القنابل الثقيلة تدور في السماء ، الدلتا تحت رقابة شديدة .
كما اخذت الطائرات النفاثة تئز في الجو وتحلق فوق مآذن المدينة .

وكان ذلك مظهرا رائعا من مظاهر القوة ، لا يقل عن مظهر الدبابات بحال .

ولم تكن المظاهرة مجرد استعراض ، فان الطائرات مثلها في ذلك مثل الدبابات ، كانت كلها مسلحة ومتأهبة للعمل .

وهكذا تمت المرحلة الثانية من مراحل الخطة .

وبدات المرحلة الثالثة فورا ، فارسلنا الى الملك قائمة بمطالب الجيش(١٦) ، وكان اهم ما في تلك المطالب اسناد رئاسة الوزارة الى « علي ماهر » فهو وحده الذي راينا ان في مقدوره تطهير الحكومة .

كذلك طالبنا بتطهير قيادة الجيش ، واعادة العمل بالدستور(١٧) وتطهير الحاشية واقصاء بعض افرادها .

ولم يكن الملك قط سريعا وحاسما فيما يتصل بمطالب الجيش كما كان في ذلك اليوم ، فسقطت وزارة احمد نجيب الهلالي بعد الظهر ، ولم ينقض على تأليفها سوى ٢٤ ساعة ، وطلب الى علي ماهر تأليف الوزارة الجديدة .

وعندئذ ادركنا ، لاول مرة ، اننا دحرنا الملك وهزمنا القوى التي كانت تقف خلفه .

اجتثاث الداء

وفي اجتماع طويل استغرق الساعات الاخيرة من ليل ٢٤ تموز والساعات الاولى من صباحه ، قررت اللجنة المركزية ان تقوم بمجهود اخير لانقاذ مصر من متاعبها وعللها باجتثاث الداء من جذوره ، ولهذا صممنا على الزحف الى الاسكندرية وخلع فاروق عن العرش .

وفي الساعة السابعة من صباح يوم الجمعة ٢٥ تموز ، كان الضابط المكلف بتنفيذ خطط اللجنة المركزية يقوم باستكشاف منطقة الاسكندرية تمهيدا لحصارها . ولم نكن نعلم ، في ذلك الوقت ، في اي من القصرين سنجد الملك : في قصر المنتزه او في قصر راس التين .

بل لقد قدرنا كذلك احتمال وجوده في الجناح الملكي بمستشفى « فؤاد الاول » حيث كان يذهب بعض الاحيان لاجراء فحوصات .

ودلت التحريات على انه موجود بقصر راس التين ، ولكي لا ندع له الفرصة للافلات في آخر لحظة ، وضعنا الخطة لمحاصرة القصرين في وقت واحد .

وتم الشروع بتنفيذ المرحلة الثالثة ، فسافرت الى الاسكندرية ظهرا بالطائرة ، وكان علي ماهر قد ادى يمين الولاء بين يدي الملك بمناسبة تعيينه رئيسا للوزراء .

واخذت فرق الجيش تصل تباعا من القاهرة الى الاسكندرية بالسكك الحديد وبالطريق البري .
وكانت حامية الاسكندرية في جانبنا ، فلم تحدث مقاومة ولم يحدث تدخل من اي نوع .

وقررنا ان نضرب ضربتنا بعد ظهر ذلك اليوم ، ثم ارتأينا على ضوء تأخر بعض وحدات الجيش في الطريق الصحراوي ان نؤجل الموعد الى السابعة والنصف من صباح السبت ٢٦ تموز .

وفي خلال ليلة ٢٥/٢٦ تموز ، عكف اثنان من ضباط اللجنة المركزية على كتابة انذارنا النهائي الى فاروق ، وقررنا تسليمه اليه في الصباح بعد محاصرة قصريه .

وفي الساعة الحاسمة من صباح السبت ٢٦ تموز كانت وحدات الجيش قد اتخذت مواقعها امام قصري المنتزه وراس التين .
وكان فاروق وقتئذ ، كما أنبأنا ضابط العمليات ، موجودا بقصر راس التين .

خطأ بسيط

وكانت خطة العمل تتلخص في ان ترابط الدبابات في مواجهة اسوار القصر يؤازرها المشاة وهؤلاء تدعمهم المدفعية .

تلك كانت الخطة المقررة ، وكانت ستنفذ على هذه الطريقة لولا ان اتفق ان اساء احد الضباط تفسير الاوامر التي صدرت اليه ، فقاد المشاة امام الدبابات .

وهكذا استمر في التقدم بجنوده وفي وضع يوحي بالاستعداد للالتحام الى ان اقترب من جناح « الحريم » في القصر ، وحينئذ تنبهت مراكز الحراسة المتسلحة بالمدافع الرشاشة ، وتطلع الحرس حولهم ، وابصروا الجنود يتقدمون .

وبدافع الاضطراب او المصادفة ، اطلقوا بضع رصاصات على الضابط وجنوده .

وفي خلال الدقائق القليلة التالية ، كان الرصاص يصفر كالريح خلال نوافذ القصر .

ولم يتوقف اطلاق النار حتى اعتدل الضابط واقفا في الميدان وباسطا ساعديه امام جنوده ليكفوا عن القتال .

ومما لاشك فيه ان ذلك كان منظرا يستحق المشاهدة ، على انها كانت مقاومة شكلية فحسب ، وقد اسفرت عن اصابة ستة من الحراس واثنين من جنودنا باصابات كلها بسيطة .

انما المهم ، ان هذه المناوشة لم تترك في ذهن فاروق اي شك حول طبيعة المهمة التي اقتضت هذه الزيارة الصباحية .

وكان مقر قيادتي خلال ذلك اليوم في مقر القيادة الصيفي بثكنات مصطفى باشا . وكنا طول الوقت على اتصال بوحدات الجيش بواسطة الهاتف واللاسلكي .

ومنذ الساعة السابعة والنصف ، كانت دائرة الهاتف تحت رقابتنا، بحيث لا يتسنى للقصر الاتصال بالخارج دون علمنا .

وقد تقرر ان يقدم علي ماهر انذارنا في الساعة التاسعة صباحا .

وكانت طائرات « غلوستر ميتيور » و « هافيلاند فامباير » النفاثة حاملات الصواريخ ومدافع ٢٠ مليمترا تؤلف مظلة مستمرة فوق القصرين .

وفوق هذه الاسراب ، كانت تحلق مظلة اخرى مسلحة بالقنابل الثقيلة ، وهذه الاسراب كلها تتلقى الاوامر باستمرار بواسطة اللاسلكي .

وجاء الرد

وكنا نخشى ان يحاول فاروق الافلات بطريق البحر ، او بالطريق الصحراوي الى ليبيا .

وفكرنا في احتمال فراره بطريق الجو فاعددنا سربا من طائرات « هوكر فيوري » ليقطع عليه الطريق ، بيد انه بقي في قصره ولم يبرحه .

وفي الساعة التاسعة صباحا ، قابلت رئيس الوزراء في مقره الرسمي ، وسلمته الانذار ليقدمه للملك ، فتوجه علي ماهر الى قصر راس التين وسمح له بالدخول فورا .

وكانت الساعة آنذاك التاسعة والربع من صباح السبت ٢٦ تموز . فعدت ادراجي الى مقر القيادة ، انتظار لرد رئيس الوزراء .

وجاء الرد في الساعة الحادية عشرة .

لقد وافق الملك فاروق ووقع بامضائه على انذار للضباط الاحرار في الجيش المصري يطلبون فيه :

١ – ان يوقع وثيقة تنازله عن عرش مصر في الساعة الثانية عشرة من ذلك اليوم .

٢ – ان يغادر مصر الى الابد في الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه .

وفي الحال ، قصدت الى مقر رئيس الوزراء لا تحقق بنفسي من توقيع فاروق وقبوله الانذار .

كان التوقيع حقيقيا ... وصحيحا .

واذن انتهى امر فاروق كملك لمصر .



أمر ملكي رقم ٦٥ لسنة ١٩٥٢

نحن فاروق الأول ملك مصر والسودان

وثيقة تنازل فاروق عن العرش

سرور بالـغ

واثناء وجود علي ماهر في القصر مع الملك ، كان يقع في الشـارع شيء عجيب .

فان شابا امريكيا هو المستر « روبرت سمبسون » مرافق السفير كافري كان يحاول بكل ما لديه من جهد ان يشق لنفسـه طريقـا بالسيارة خلال الحصار الذي ضربه الجنود حول القصر .

كان مصمما على الدخول بأي ثمن ، فاتصل بي قائـد القـوة باللاسلكي ناقلا لي الخبر ، فامرته بالسماح للامريكي بالمرور . وقـد علمنا انه قصد توا الى مكتب الملك .

واخبرنا علي ماهر انه ما أن ابصر فاروق بالشاب حتـى نـاداه قائـلا :

ــ تعال .. تعال ، انني لم أسر في حياتي برؤية انسان كما سرني ان اراك الان ، ليس لدينا متسع من الوقت ، هناك امـران اريـدك تقلهمـا للسـفير .

وظل رئيس الوزراء جالسا لا ينطق بكلمة .

كان الوقت يمر بسرعة ، وهو يعلم ان موعد السادسة بعد الظهر الذي حددناه في الانذار نهائي وحاسم ولا رجعة فيه .

ومضى الملك يقول للمستر سمبسون :

ــ ارجو منك ان تطلب من السفير بذل كل شيء ممكـن لانقـاذ حياتي ، واذا تمكن من ذلك ، فهل له ان يأتي لوداعي ؟

وانصرف الامريكي ، وعاد علي ماهر الى مقـره .

في السادسة تماما

وفي الساعة الخامسة والدقيقة الثلاثين ارسل فاروق زوجتـه ناريمان وبناته الثلاث والملك الطفل احمد فؤاد الثاني الـى اليخـت الملكي « المحروسة » الذي كان في انتظارهم .

وبقي فاروق داخل قصر راس التين ، حيث يقضـي لحظاتـه الاخيرة في مصـر .

وكان في رفقته وقتئذ علي ماهر والاميرة فائــــزة وزوجها علـي رؤوف والاميرة فوزيــة وزوجها اسماعيل شيرين والسفير الامريكـي ممثلا للبعثات الاجنبية في مصر ومرافقه المستر سمبسون .

ودع فاروق شقيقتيه ، ثم مشى الى المصعد مع علي ماهر والمستر كافري واسماعيل شيرين والمستر سمبسون وهبطوا جميعا بالمصعد الى الطابق الارضي وساروا الى المرسى الملكي حيث كان في الانتظار زورق لنقل فاروق الى « المحروســـة » .

ولم يكد فاروق يصل المرسى حتى أنزل العلم الملكـي وعزفـــت موسيقى القصر السلام الوطنـي .

وما ان بلغ نهاية المرسى ، حتى وقف وحيدا مطرقا ، في ثوبـــه الابيض البراق .. ثوب اميرال في البحرية المصرية .

ولم يبد عليه في تلك اللحظات شيء من دلائل التأثـر والانفعـال ، وكانت عيناه لا تفارقان ساعة يده .

وفي الساعة السادسة تماما ، رفع راسه وانتقل الى الزورق الذي حمله الى « المحروسة » .

وفي الساعة السادسة واربع دقائق ، وصلت الـى راس التـين ووجدت زورقا في انتظاري حملني الى اليخت الملكي ، وهناك ودعـت السـيد فاروق .

انتهت القصة التي وردت على لسان « الرئيس اللواء » كما كـان يعرف وقت نشرها . وهنا يرى مؤلف هذا الكتاب ان من واجبه ايراد نصوص البيانات والوثائق التي اذيعت على الشعب المصري في غضـون اربعة ايام امتدت من ٢٣ تموز الى ٢٦ منه :

البيان رقم واحد

اجتازت مصر فترة عصيبة في تاريخها الاخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم .

وقد كان لهذه العوامل تاثير كبير على الجيش ، وتسبب المفرضون والكثيرون في هزيمة الجيش في معركة فلسطين ، اما فتـرة ما بعـد الحرب فقد تضافرت فيها عوامل ، وتآمر الخونة على الجيش حتـى

تصبح مصر بلا جيش يحميها ، وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير انفسنا وتولى امرنا رجال نثق في خلقهم .

ولاشك ان مصر ستلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب .

اما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش فهؤلاء لن ينالهم ضرر وسيطلق سراحهم بعد مدة وفي الوقت المناسب .

وان الجيش سيعمل على صالح الوطن مجردا من كل غاية في ظل الدستور وانني اطلب من الشعب ان لايسمح لاحد من الخونة ان يلجأ لاعمال التخريب او العنف او الشغب لان ذلك في غير صالح مصر وسيقابل بشدة لم يسبق لها مثيل وسيلقى جزاءه .

وسيقوم الجيش بواجبه متعاونا مع البوليس . واطمئن اخواننا الاجانب على مصالحهم واعتبر نفسي مسؤولا عنهم .

والله ولي التوفيق .

لواء ((اركان حرب))
محمد نجيب

القاهرة في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

انـــذار

من الفريق اركان حرب محمد نجيب بأسم ضباط الجيش ورجاله الى جلالة الملك فاروق الاول :

انه نظرا لما لاقته البلاد في العهد الاخير من فوضى شاملة عمت جميع المرافق نتيجة سوء تصرفكم وعبثكم بالدستور ، وامتهانكم لارادة الشعب حتى اصبح كل فرد من افراده لا يطمئن على حياته او ماله او كرامته .

ولقد ساءت سمعة مصر بين شعوب العالم من تماديكم في هذا المسلك ، حتى اصبح الخونة والمرتشون يجدون في ظلكم الحماية والامن والثراء الفاحش والاسراف الماجن على حساب الشعب الجائع الفقير ، ولقد تجلت آية ذلك في حرب فلسطين ، وما تبعها من فضائح الاسلحة الفاسدة ، وما ترتب عليها من محاكمات تعرضت لتدخلكم السافر ، مما افسد الحقائق وزعزع الثقة في العدالة ، وساعد الخونة

على ترسم هذه الخطى ، فاثرى من اثرى ، وفجر من فجر ، وكيف لا والناس على دين ملوكهم .

لذلك قد فوضني الجيش الممثل لقوة الشعب ان اطلب من جلالتكم التنازل عن العرش لسمو ولي عهدكم الامير احمد فؤاد على ان يتم ذلك في موعد غايته الساعة الثانية عشرة من ظهر اليوم (السبت الموافق ٢٦ يوليو ١٩٥٢ والرابع من ذي القعدة ١٣٧١) ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه ، والجيش يحمل جلالتكم كل ما يترتب على عدم النزول على رغبة الشعب من نتائج .

فريق « اركان حرب » محمد نجيب
القائد العام للقوات المسلحة

الاسكندرية في يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ .

التنازل

امر ملكي رقم ٦٥ لسنة ١٩٥٢
نحن فاروق الاول ملك مصر والسودان

لما كنا نتطلب الخير دائما لامتنا ، ونبغي سعادتها ورقيها ، ولما كنا نرغب رغبة اكيدة في تجنيب البلاد المصاعب التي تواجهها في هذه الظروف الدقيقة ونزولا على ارادة الشعب :

قررنا النزول عن العرش لولي عهدنا الامير احمد فؤاد واصدرنا امرنا بهذا الى حضرة صاحب المقام الرفيع علي ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء للعمل بمقتضاه .

فاروق

صدر بقصر راس التين في ٤ من ذي القعدة سنة ١٣٧١ – ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ .

بيان

بني وطني :

اتماما للعمل الذي قام به جيشكم الباسل في سبيل قضيتكم قمت

في الساعة التاسعة من صباح اليوم السبت ٢٦ من يوليو سنة ١٩٥٢ الموافق ٤ من ذي القعدة سنة ١٣٧١ بمقابلة حضرة صاحب المقام الرفيع علي ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء وسلمته عريضة موجهة الى مقام حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول تحمل مطلبين على لسان الشعب :

الاول : ان يتنازل جلالته عن العرش لسمو ولي عهده قبل ظهر اليوم .

والثاني : ان يغادر جلالته البلاد قبل الساعة السادسة من مساء اليوم .

وقد تفضل جلالته فوافق على المطلبين وتم التنفيذ في المواعيد المحددة دون احداث ما يعكر الصفو .

وان نجاحنا حتى الان يعود اولا واخيرا الى تضامنكم معنا بقلوبكم وتنفيذكم لتعليماتنا واخلادكم الى الهدوء والسكينة .

واني اعلم ان الفرح قد يفيض من قلوبكم لهذا النبأ .. غير اني اتوسل اليكم ان تستمروا في التزام الهدوء التام حتى نستطيع السير بقضيتكم في امان ، ولي كبير الامل في انكم ستلبون ندائي في سبيل الوطن .

وفقنا الله لما فيه خيركم ورفاهيتكم والسلام .

فريق اركان حرب
محمد نجيب
قائد عام القوات المسلحة

بيـــان

في الوقت الذي نزل فيه الملك فاروق الاول عن العرش لولي عهده. وغادر الديار المصرية ، ينادي مجلس الوزراء بحضرة صاحب الجلالة احمد فؤاد الثاني ملكا لمصر والسودان ، ويدعو الله ان تنعم البلاد في عهده بما تصبو اليه من رقي ومجد وسعادة .

بولكلي في ٤ من ذي القعدة سنة ١٣٧١ ــ ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ .

سلطات الملك

بعد ان نودي بحضرة صاحب الجلالة احمد فؤاد الثاني ملكا لمصر والسودان ، يعلن مجلس الوزراء انه تولى منذ اليوم مسؤولية سلطات الملك الدستورية بأسم الامة المصرية الى ان يحين الوقت الذي يجب عليه فيه ان يسلم مقاليدها الى مجلس الوصاية وفقا لاحكام الدستور .

بولكلي في ٤ من ذي القعدة سنة ١٣٧١ – ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ .

هوامش الفصل الخامس

(١) قام الملك بترفيع « نجيب » الى رتبة « فريق » في نفس اليوم بيد انه رفض الرتبة بعد ايام .

(٢) استخدمت المجلة عبارة : Coup d,etat أي « قلب الدولة » وهي فرنسية الاصل ثم دخلت اللغة الانكليزية .

(٣) اول قانون من نوعه في الوطن العربي .

(٤) اصبح رئيسا للجمهورية ايضا بعد الغاء النظام الملكي عام ١٩٥٣ وقد تبين ان مجلس الثورة كان مؤلفا من : « محمد نجيب » و « جمال عبدالناصر » و « عبدالحكيم عامر » و « انور السادات » و« علي صبري » و « حسين الشافعي » و « خالد محي الدين » و « جمال سالم » و « صلاح سالم » و « كمال الدين حسين » .

(٥) القي القبض عليه في « مرسي مطروح » اثناء محاولته الفرار الى « ليبيا » عند نجاح الثورة وقدم الى المحاكمة ودخل السجن .

(٦) Colonel كما ورد في الحديث وكانت الرتبة تسمى من قبل « قائممقام » .

(٧) Mr. وقد قمنا بتعريبها .

(٨) اصيب « نجيب » بجراح ثلاث مرات في فلسطين ، ولهذا كان يحمل رقعة عليها الرقم «٣» على صدره .

(٩) او وزارة الحربية كما كانت تعرف انذاك ، ويلاحظ القارىء ان تفسيرنا لهذه الاصطلاحات يعود الى اختلافها بين الانكليزية ، وبها نشرت القصة ، وتلك التي كانت سائدة في مصر تلك الايام .

(١٠) كان زوج الاميرة « فوزية » شقيقة الملك وامبراطورة ايران السابقة .

(١١) كانت هذه هي محطة الاذاعة الوحيدة في مصر آنذاك .

(١٢) الامير الاي في حينه .

(١٣) ينبغي ان ناخذ بنظر الاعتبار بهذا الصدد ان القوات الانكليزية كانت تتمركز في معسكرات « فايد » على قناة السويس وقريبا من الاسماعيلية وان بمقدورها ازحف

على القاهرة متى ارادت ، وكان قادة الثورة في اشد القلق من هذه الناحية .

(١٤) وعلى اية حال ، لا يوجد ما يشير الى ان اللواء « نجيب » كان على علم بحركة الصفر وتصريحه هذا يؤيد ذلك .

(١٥) قال « المراغي » في حديث له مع مجلة « الاسبوع العربي » بتاريخ ٧ كانون الاول ١٩٨٢ انه لم تكن لديه صورة واضحة عما يجري في القاهرة وانه بادر الى الاتصال بعدد من الضباط الكبار دون تدبير سابق وان اللواء « نجيب » كان من بينهم .

(١٦) وكان يقضي الصيف في الاسكندرية كما جرت العادة . ومن الملاحظ ان الحكومة كانت تنتقل معه الى « العاصمة الثانية » طوال وجوده هناك ، وحتى قيادة الجيش احيانا .

(١٧) في اعقاب مبادرة حكومة حزب « الوفد » برئاسة « مصطفى النحاس » سنة ١٩٥١ الى الغاء معاهدة ١٩٣٦ المعقودة مع بريطانيا ، جرت اصطدامات في منطقة القناة بين القوات الانكليزية والفدائيين ورجال الشرطة المصريين اسفرت عن خسائر فادحة للطرف الاخير ، ومع ذلك استمرت الاشتباكات . وفجاة حدثت مظاهرات صاخبة في القاهرة ، اشتركت فيها جهات مختلفة صاحبتها حرائق هائلة في المخازن والفنادق الكبرى العائدة للاجانب ، فما كان من « فاروق » الا ان استغل ذلك فاقال حكومة « النحاس » والغى العمل ببعض احكام الدستور واصدر مرسوما بحل مجلس النواب ، وبذلك تحول الى دكتاتور مطلق .

الفصـــل السادس

مهمة سرية للغاية

في ٢٩ آذار ١٩١٦ ، هبطت البرقية التالية على مقر قيادة الحملة البريطانية على بلاد ما بين النهرين وهي تحمل توقيع السير « وليام روبرتسون » ، رئيس هيئة الاركان الامبراطورية العامة : « افتحوا الخط ١٤٨٩٥ بالشفرة . منتهى السرية وموجه لك (القائد العام) شخصيا . من المقرر ان يصل الكابتن لورنس حوالي ٣٠ آذار قادما من مصر للتشاور معكم ومعرفة ما اذا كان بالمستطاع شراء واحد من القادة الاتراك لجيش ما بين النهرين مثل خليل باشا(١) او نجيب(٢) لغرض تسهيل انقاذ طاوزند(٣) .

« لهذا الغرض انت مخول بصرف اي مبلغ لا يتجاوز مليون جنيه . نظرا لعدم توفر شخص مناسب من الاهالي بالسرعة المطلوبة ، فان لورنس يتوجه وحيدا ولكن من الجائز العثور على وسيط مناسب في البصرة »(٤) .

وقع هذا النبأ المباغت وقع الصاعقة على القادة العسكريين للحملة البريطانية ، ولم يقتصر ذلك عليهم بل امتد الى السير « بيرسي كوكس » الذي اعتبر العملية اكثر اذى بالنسبة لهيبة بريطانيا من استسلام الحامية . ومما زاد من حيرة المسؤولين العسكريين والسياسيين في المناطق المحتلة ان البرقية لم توضح ما اذا كان المبلغ موجها للاستعمال الشخصي من جانب « خليل باشا » او الى خاله « انور باشا » وزير الحربية او للحكومة التركية . وفي الحالة الاخيرة فانه كان سيستخدم لاطالة امد الحرب ضد دول الحلفاء ، ومع ذلك ما كان هناك من شيء يمكن ان يقف في وجه « لورنس » الذي التزم جانب الصمت التام حول مهمته .



انور باشا

ذهــــول

جاءت الفكرة ، في البداية ، من اللورد « كتشنر » وزير الحربيـة و« الجندي الاول في الامبراطورية » على حد تعبيـر احـد المصـادر البريطانية ، وانه هو الذي اصدر تعليماته بهذا الصـدد الى الجنـرال « روبرتسون » . ومما اثار حنق كل الذين عرفوا بالامر ، وذهولهـم ، ان « لورنس » كان ضابطا صغيرا في مركز الاستخبارات البريطانـي في القاهرة والمعروف باسم « المكتب العربي » اذ لم تتجاوز رتبته « نقيب » كما انه كان في الثامنة والعشرين من العمر فقط .

غادر « لورنس » القاهـرة في ٢٢ آذار الى « السويس » حيث استقل سفينة اتجهت به عبر « البحر الاحمر » الى « البصرة » حيث كانت المس « بيل » السكرتيرة الشخصية للسير « بيرسـي » اول من يلتقي به مما سبب له السرور . لكن موقف الاخرين منه بدا له غريبـا ، ويبدو ان البرقية الموجهة الى القيادة العامة ، او فكرة عنها على الاقـل قد تسربت بشكل او بآخر ، اذ يقول : « ابدى البريطانيون المقيمـون اقوى معارضة لقدومي ، وكان اثنان من الجنرالات من الطيبـة بحيـث اوضحا ان مهمتي (التي لايعرفان عنها شيئا في الواقع) كانـت غيـر مشرفة لاي جندي (وانا لم اكن كذلك) »(٥) .

قد يتصور القارىء من سياق الاحداث ، ان المهمة السرية الوحيـده التي جلبت « لورنس » الى العراق كانت محاولة انقاذ « طاوزنـد » ورجاله عن طريق الرشوة ، لكن الواقع غير ذلك فقد كانت في خبايا دماغه مهمة سرية اخطر من هذه بكثير ، ولو ان النجاح حالفه فيها لما كان بحاجة للذهاب الى « الكوت » ولربما جلب ذلك معه تغيرا لا يمكن التنبـؤ بـه ، ليس في العراق وحده ، بل في المنطقة باسرها ! لقد جـاء « لورنـس » بامر عظيـم !

كسب الزمن

من الافضل ، عند هذه المرحلة ، ترك « لورنس » يتحدث : « ولقـد تبين لي ، من خلال زيارتي هذه ، ان الظروف مواتيـة للشروع في تنفيـذ حركة عربية مناهضة للترك . كان سكان النجف وكربلاء ، البعيدون عن مؤخرة جيوش خليل باشا ، ثائرين ضده ، كما كان الجنود العرب في جيشه يجهرون بالكراهية لتركيا .

« وكان باستطاعة قبائل الحي(٦) والفرات ان تبـدل مجـرى الاحداث في العراق اذا هي شعرت بشيء من العطف والتفهم لامانيها . ولو نشرنا وعداً مماثلاً لذلك الذي اعطيناه للشريف (حسين) . وحتى لو اعلنا نفس البيان الصادر فيما بعد في بغداد المستولـى عليهـا(٧) وتابعناه ، لكان قد انضم الينا ما يكفي من الرجال المحليين المقاتلين لشن غارات على خط المواصلات التركي بين بغداد والكوت .

« وبعد عدة اسابيع من هذه العمليات ، فان العدو يكون امـا ملزما برفع الحصار والتراجع ، او انه نفسه سيتعرض ، خارج الكوت ، الى حصار اقسى من حصاره لطاوزنـد داخلهـا . كان بالمستطاع كسب الزمن لتطوير هذا المشروع ، ولو ان القيادة في بلاد ما بين النهرين قد حصلت من وزارة الحربية على ثماني طائرات اخرى لزيادة النقل اليومي من الطعام الى حامية الكوت ، لطالت مقاومـة طاوزند الى امد غير محدود . كان دفاعه حصينا بالمقاييس التركية ،



جنود اتراك قرب الكوت

ولم يعرض عليه الاستسلام الا بفعل الاخطاء الفادحة في الداخل والخارج » .

لقد دقت ساعة العمل . هنا تبرز مشكلة يواجهها كل مؤرخ ينشد الحقيقة . ذلك ان « لورنس » لم يتطرق في كل ما كتب ، على كثرته . الى تفاصيل ما قام به ولا الاشخاص او الجهات التي ارتأى انها مناسبة لانجاز هذه المهمة ، بل اكتفى بالاشارة العابرة(٨) ، ومن حسن الحظ انه يوجد شاهد واحد ، وواحد فقط ، هو « سليمان فيضي »(٩) الذي يكشف لنا النقاب في مذكراته عن سر مذهل اذ يقول : « بينما كنت جالسا في مكتبي التجاري في الساعة التاسعة من صباح الجمعة ٧ نيسان ١٩١٦ ، دخل علي رجلان احدهما المدعو الياس بلدا من اهالي البصرة ، وثانيهما شاب مصري لم اعرف اسمه ، وقدما لي الكتاب التالي :

البصرة ٧ ابريل ١٩١٦

لحضرة الاكرم الافخم سليمان فيضي افندي المحترم

أسعد الله اوقاتكم . بعده ارجوكم تشرفون الى محلي اليوم نومرة ٦ درب الاعوج(١٠) في العشار لاجل المواجهة ودمتم .

والكابتن مور هذا كان قبل الاحتلال قنصلا لبريطانيا في الكويت ، ولم تكن لي به معرفة سابقة ، فلا غرو ان يثير كتابه هذا مخاوفي في زمن كان فيه الرجال يساقون الى السجن والمنافي سوق الاغنام الى المجازر .

بهي الطلعة

توقفت العربة امام بناء قديم ، فترجلت وزميلاى ودخلنا الدار . فطلبا مني الانتظار برهة في فنائها ريثما يشعران الكابتن بحضوري . وما اسرع ما خرج هذا فاستقبلني بالترحاب ، ثم ادخلني الغرفة .

كانت الغرفة فسيحة ، صفت في جانب منها بضعة كراسي حول طاولة صغيرة ، ووضعت في الجانب الاخر منضدة الكابتن مور . وكان واقفا بجوار الطاولة ضابط اخر بهي الطلعة برتبة كابتن ، يحلي كتفيه بشارات الاركان القرمزية ، وقد افتر ثغره عن ابتسامة عريضة غير متكلفة . قدمني الكابتن مور اليه ثم قدمه الي قائلا : اقدم اليك الكابتن لورنس الذى طلب تنظيم هذه المقابلة الخاصة والتى اعتقد انها على جانب من الخطورة والاهمية .

فتقدم لورنس وصافحني مصافحة تنم عن صداقة اكيدة خالصة ،

وراح يرحب بى ويعبر عن اشتياقه الشديد للتعرف بى . وتلهفه لهـذه المقابلة . كل ذلك بلهجة مصرية متقنة تكاد لا تدرك اللكنة الاجنبية فيها الا بعد لأى .



لورنـــس

اما انا ، فقد زايلني الكابوس الذي استولى على مشاعري في الطريق الى هذا المكان ، وبدات الطمانينة تتسرب الى نفسي تدريجيا ، وباشارة من لورنس غادر الكابتن مور الغرفة واغلق خلفه الباب . فبقينا نحن الاثنين وحدنا .

لم تكن الثورة العربية قد نشبت في الحجاز حتى ذلك الحين ، ولم اكن اعلم من امر لورنس شيئا ، فقد كانت اعماله واتصالاته في الحجاز والجزيرة العربية تحاط بالكتمان قبل نشوب الثورة . اما الشهرة التي اكتسبها لورنس ، واخباره العجيبة ، ومغامراته الجريئة ، فقد ذاعت بعد الثورة المذكورة في ١٠ حزيران عام ١٩١٦ ، اي بعد مقابلتي له بشهرين .

وبعد انفرادنا في الغرفة ، جرت بيننا المحادثة التالية اسوقها الى القارىء الكريم بأمانة . ورغبة مني في الاختصار فسوف ارمز الى لورنس بالحرف «ل» والى اسمي بالحرف «س» :

ل ــ اني وصلت البصرة هذا الصباح قادما من مصر لغرض الاتصال بك شخصيا ، لذا طلبتك الى هنا حال وصولي .

س ــ اشكرك ، وارجو ان تسامحني اذا سألتك عما اذا كان احدنا قد تشرف بمقابلة الاخر قبل اليوم .

ل ــ كلا ، لم يسبق ان تعرف احدنا على الاخر ، ولكني اعرفك جيدا ، او بالاحرى اعرف عنك الشيء الكثير ، خاصة عن اعمالك .

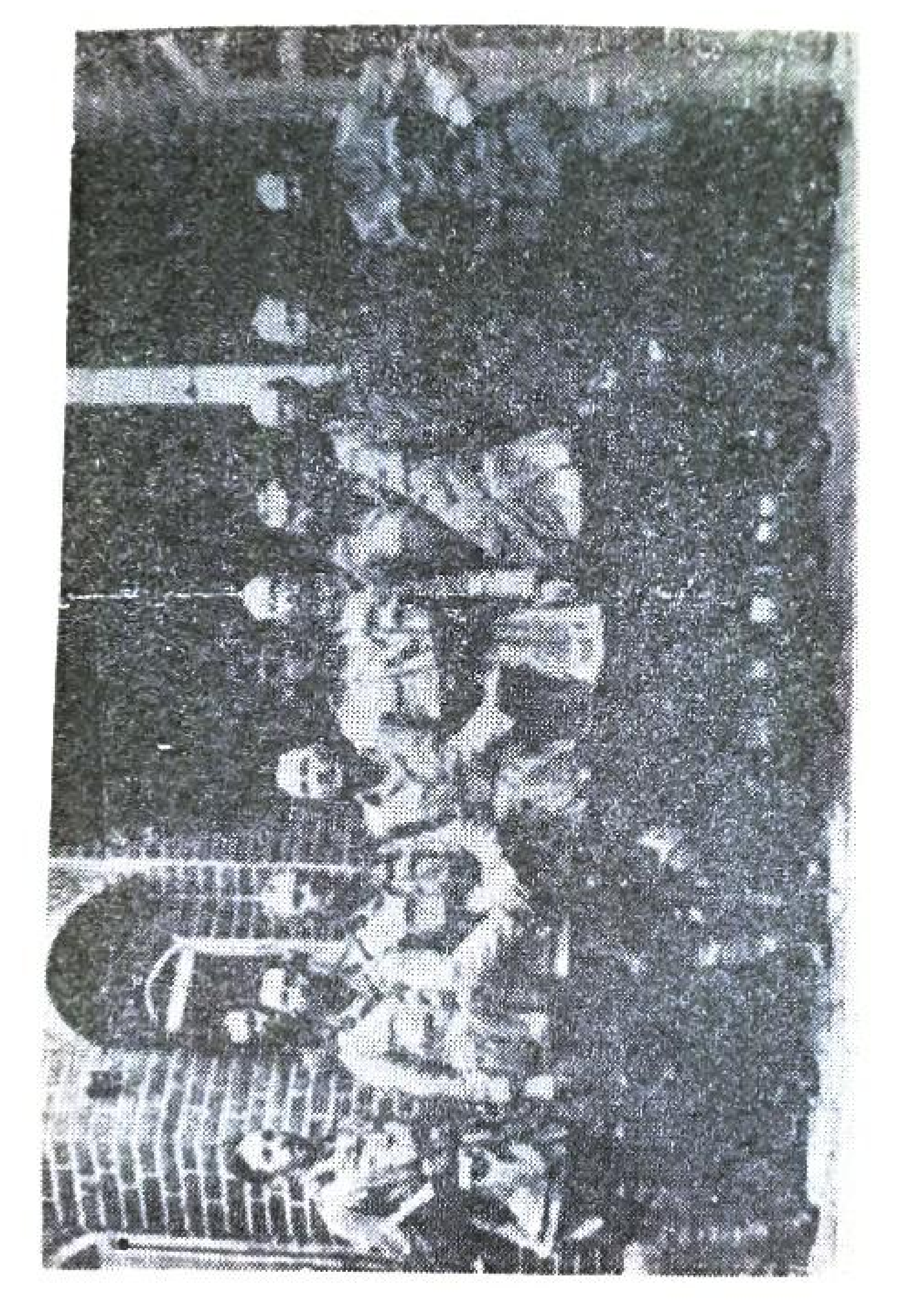
س ــ كيف ولماذا عرفتني ؟ ثم ما الذي تعنيه باعمالي ؟

ل ــ اعني اعمالك السياسية ، قلت اني اعلم كل شيء عنك فأرجو ان تخبرني بالحقيقة كاملة ، حدثني عن جمعية العهد(١١) ومدى قوتها .

س ــ لا توجد جمعية بهذا الاسم او غيره ، كما واني لم اسمع عن وجود جمعية في البصرة منذ الاحتلال .

ل ــ ارجو الا تخفي عني شيئا .

س ــ تاكد انه لم يبق لتلك الجمعية او لغيرها اثر في عهد الاحتلال ، كما واني شخصيا نفضت يدي من كل موضوع يمت الى السياسة بصلة ، وقد حصرت جل همي في اشغالي واموري الخاصة .



الجنرال طاوزند مع ضباطه في الكوت (الوسط بالقبعة)

ل ـ الم تكن نائبا معارضا للاتحاديين في مجلس النواب العثماني ؟

س ـ نعم كنت .

ل ـ الم تكن منتسبا الى حزب اللامركزية وجمعية العهد ؟

س ـ نعم كان ذلك قبل الحرب اما الان . .

ل ـ الم تعمل على بث الفكرة القومية العربية في العراق لاسيما في الموصل ؟

س ـ نعم هذا صحيح .

ل ـ اخالك لا تزال حذرا مني ، فلكي ازيل هذا الحذر ابلغك تحيات بعض اصدقائك ، الذين طالما اثنوا على كفاحك في سبيل القضية العربية . واطروا جهادك في مضمار القومية ، مما حدا بي الى مقابلتك والاعتماد عليك لانجاز مهمتي الخطيرة ، اما اولئك الاصدقاء فهم عزيز علي ، والسيد رشيد رضا ، ورفيق العظم ، وحقي العظم ، وحسن خالد الصيادي .

هـذا تواضع

س ـ اشكرك على ثقتك بي ، كما اشكرهم على حسن ظنهم وجميل ثنائهم ، اني في الحقيقة لم اقم بعمل يستحق الذكر .

ل ـ هذا تواضع . وعلى كل فاني ارجو ان تكون الان في غاية الاطمئنان ، وان لا تخشى بأسا . اني اثق بك واصدق كل ما تقوله . فاخبرني عن جمعياتكم وعن مدى قوتها . انك تعلم اننا اعداء الترك . وزيادة على ذلك فاني اعاهدك على كتمان المعلومات السرية التي سوف تدلي بها الي .

س ـ تأكد انه لا توجد في البصرة الان اية جمعية ، وكل ما ذكرته كان قبل الحرب .

ل ـ ما مدى اتصالك بعزيز علي ؟

س ـ لم يسبق لي ان قابلته ، وانما تجمعني واياه رابطة المبدأ . عرفته قبل ان يعرفني لصيته الذائع . اما هو فقد عرفني يوم سجن في الاستانة وحكم عليه بالموت ، فكان فريق من اصحابه ، وبعض

اقربائه ، ولفيف من اعضاء العهد والضباط العرب يجتمعون في داري بالاستانة لتدبير امر نجاته ، حتى يسر الله امر خروجه من السجن وسفره الى مصر .

ل ــ كيف ومتى عرفت السيد رشيد رضا ورفيق العظم وحقي العظم وحسن خالد ؟

س ــ تعرفت بالسيد رشيد رضا حينما زار البصرة قبل خمس سنين ، ثم التقينا مرارا في مصر . اما الاخرون فقد تعرفت عليهم اثناء زياراتي لمصر في طريقي الى الاستانة . هذا علاوة على الاتصال الكتابي والمراسلة المستمرة التي كانت بيني ، بصفتي سكرتيرا للجمعية الاصلاحية ولحزب الائتلاف وبينهم بصفتهم اقطاب الفكرة القومية .

ل ــ ما هي علاقتك بياسين الهاشمي ؟

س ــ انني اعرفه مذ كنا طلابا في المدرسة ، ثم توثقت صداقتنا عندما ذهب الى الموصل عام ١٩١٣ لفرض تأسيس جمعية اصلاحية فيها ، ولبث الفكرة القومية العربية بين ابنائها . وكان ياسين في ذلك الوقت قائدا لحامية الموصل ، وكان هو الاخر متحمسا للفكرة ، فكان يعينني في مهمتي ويسهل لي الاجتماع بالضباط العرب سرا .

ل ــ اتدري اين هو الان ؟

س ــ كلا .

ماذا عن الشريف ؟

ل ــ انه في ادرنه قائدا لحاميتها . وقد ارسلته الحكومة الاتحادية الى هناك بعد ان افتضح امر انتمائه الى جمعية العهد .

س ــ لم اكن اعلم بذلك .

ل ــ اتعرف نوري الشعلان ؟

س ــ كلا .

ل ــ ماذا تعرف عن محمد النجيفي من اهالي الموصل ؟

س ــ اعرفه فهو من وجهاء الموصل .

ل ـ هل تربطك بالامير عبدالعزيز السعود معرفة او صداقة ؟

س ـ عرفته شخصيا منذ سفرتي الى نجد بصحبة السيد طالب النقيب . لقد نزلنا في ضيافته ولقيت منه محبة وتوددا ، حتى انه فاتحني أكثر من مرة طالبا بقائي في خدمة امارته ، فاعتذرت .

ل ـ هل تعرف الشريف حسين شريف مكة ؟



حسين ، شريف مكة

س ـ نعم قابلته مرتين او ثلاثة في سنة ١٩١٠ أثناء وجودي لاداء فريضة الحج .

ل ـ هل تعرف احدا من اولاده ؟

س ـ تعرفت على الشريف فيصل نائب جدة في مجلس النواب العثماني حين كنت نائبا عن البصرة ، ورأيت الشريف عبدالله في مكة والاستانة دون ان يحصل تعارف بيننا .

ل ـ اتدري اين الشريف فيصل الان ؟

س – كـــلا .

ل – انه الان في الشام .

س – لي اصدقاء كثيرون هناك مثل محمد كرد علي ، وشكيب ارسلان ، وبديع المؤيد ، وعبدالحميد الزهراوي ، وسليم الجزائري ، وفارس الخوري ، ومحمد بيهم ، وسلام علي سلام ، واحمد طبارة ، والشيخ عباس الازهري ، وبشير القصار ، وعبدالغني العريسي ، وطه المدور ، وعمر حمد ، وعبدالكريم قاسم الخليـــل ، وغيرهم(١٢) .

ل – هل تعرف عبدالرحمن باشا اليوسف ؟

س – نعـــم .

ل – كيف ترى وضع الضباط العرب في الجيش العثماني الان ؟

س – اعتقد ان اكثرهم غير مرتاح من الترك .

عاضدنـــي !

ل – هل تعرف السبب الذي حدا بي الى القـــدوم للبصـــرة لمقابلتـــك ؟

س – لا أبـــدا .

ل – غاية جليلة ، فيها استقلال بلادك وسعادة العرب في مختلف اقطارهم ، وفيها تقدمك معنويا واستفادتك ماديـــا اذا عاضدتنـــي وانجزت المهمة التي سوف اعهد اليك القيام بها .

س – حبذا سعادة البلاد واستقلالها ، ولكن كيف يتسنى لـــي ان اعاضدك وانا فرد ، وما هو العضد الذي ترتجيه مني يا ترى ؟

وهنا اعتدل لورنس في جلسته ، واطرق قليلا كمن يستجمع شتات افكاره ليصوغ عبارات الحديث الخطير الذي سوف يدلي به . ل – اني شغوف بحب العرب ، مفتون بسجاياهم حريص على كل ما ينفعهم ، وقد سنحت لي الفرصة الان لتحقيق امنيتي بتقديم خدمة عظيمة اليهـــم ، وخاصة العراقيين منهم ، بأن اعمل على انالتهم استقلالهم .

انها يا سيدي فرصة ذهبية ، ذلك ان اكثرية الشعب الانكليـــزي

لا ترتاح الى استعمار بلاد جديدة بعيدة عن الجزر البريطانية ، وهذه الاكثرية الشعبية تسند حزب حزب الاغلبية في البرلمان ، فمن الواضح اذن لا تفكر الحكومة البريطانية في استعمار البلدان التي سوف تصبح تحت الاحتلال البريطاني بعد الحرب ، وهي بدون شك عازمة على افساح المجال للشعوب العربية كي تتمتع باستقلالها وتنال حقوقها[٢] بشرط ان يساهم العرب انفسهم في الحصول على ذلك الاستقلال . وان يبرهنوا على رغبتهم فيه .

خذ البنك !

وهناك على ما اعتقد وسيلة واحدة لتحقيق ذلك . الا وهي الثورة . فاذا اعلن العرب الثورة على الاتراك وحاربوهم بجانب الجيوش البريطانية فسيكون لهم الاستقلال والحرية . اما اذا قبعوا في دورهم . آملين ان تمنحهم بريطانيا الاستقلال بعد نصرها ، فذلك امر غير مقبول . خاصة وان بريطانيا مسؤولة امام حلفائها عن تصرفاتها تجاه الشعوب الخاضعة للحكم العثماني . اذن فلابد من الثورة لتنال البلاد العربية استقلالها ، وقد فوضتني الحكومة البريطانية لاشعال تلك الثورة ومدها بما يلزم لها من المال والسلاح وغير ذلك ، كما خولتني حق اتخاذ جميع الطرق والوسائل التي تكفل نجاحها . واني قد اخترتك لتقوم بمهمة اذكاء نار الثورة ، بعد الذي علمته عنك من رجال القضية العربية البارزين في مصر . فان اقدمت فانك واجد كل ما تحتاج اليه من وسائل هذه الثورة ، فسأضع تحت تصرفك البنك بكل امواله ، وسيمدك الجيش بما تشاء من السلاح ، فهيا الى العمل في سبيل القضية العربية وفي سبيل استقلال بلادك وحرية قومك .

س ـ انك غير موفق على ما اظن في اختيارك اياي للقيام بمثل هذا العمل الجبار ، فانا رجل متحضر لا تعضدني عشيرة ، وانا متوسط الحال ليس لي نفوذ الاثرياء وسطوة الاقطاعيين . انك بحاجة الى رجل ذي نفوذ عظيم وشهرة واسعة بين الناس ، وانا لست بهذا ولاذاك . اضف الى هذا شعور العداء الذي يكنه العراقيون لبريطانيا بعد الذي لمسوه من معاملة سيئة وازدراء مشين على ايدي رجالها العسكريين .

ل ـ ربما كنت الواهم يا سيدي فيما ذهبت اليه ، فليس النفوذ

والثروة هما كل شيء في الموضوع ، وسيكون المال الذي وعدنـك بـه كفيل بسد احتياجك وعامل على جذب الجمهور اليك . اما النفـوذ الذي اشرت اليه فليس اهون من تدبير أمره ، ذلك بأن تنصب لـك خياما عديدة في وجهة من البصرة ، وتلحق بخدمتك عددا كبيرا مـن الحرس والخدم والتابعين ، وتهيء الزاد للوافدين والضيوف ، وتجزل الهدايا وتمنح العطايا للانصار والمؤيدين ، حينئذ سيقبل عليك الناس افواجا افواجا ويلتف حولك الاعراب ، فتصبح رئيسا مطاعا وسـيدا لجيش كبير . اما ما ذكرته من كره الشعب العراقي للانكليز فليس بذي بال ، وهو شعور مؤقت سيزول حتما في مدة وجيزة .

س ـ ان خطتك قد تنجح على شرط ان يقوم بها رجـل آخـر ، ولعل السيد طالب باشا النقيب يستطيع ان ينجز هذه المهمـة علـى الوجه الاكمل ، فلماذا لا تفاوضه في منفاه بالهند ؟

ل ـ ان الحكومة تفضل بقاء السيد طالب في الهند فأرجو ان تعتمد على نفسك وان تثق بمقدرتك ، واعلم ان للاخلاص والمقدرة اهمية اعظم بكثير من النفوذ والمال .

س ـ لقد ابنت (بينت) رأيي بصراحة بانني لا استطيع القيام بهذا العمل ، فابحث عن غيري ، ولك مني الارشاد اذهب الى احمد باشـا الصانع(١٤) وفاوضه لعله يقبل ، فهو ذو كلمة مسموعة وذو علاقـات متينة بعشائر المنتفك .

ل ـ ان المقدرة والعلم يؤهلان المرء للقيام بأخطر المهام . فأرجو ان توافق على قيامك شخصيا بهذا الواجب المقدس دون ان ترشدني الـى احـد سـواك .

س ـ قد يكون للمقدرة والعلم المقام الاول في تقدم الرجال عندكم ، اما هنا فالناس يلتفون حول ذوي الالقـاب واصـحاب الجاه العريض والغنـى الفاحـش .

ل ـ دعنا من الجدل ، واقدم على الامر اقدام الواثق من الفوز ، ولك من المال الذي اضعه تحت تصرفك عونا واي عون .

س ـ لا يخفاك اني امارس التجارة في الوقت الحاضر ، ولي مع سائر انحاء الهند والخليج علاقات تجارية واسعة . افلا تتصور مقدار الاضـرار التي سوف تلحق بي وبعملائي لو ني اقدمت على هذا العمل ؟

ل ـ تفضل وقدر الاضرار التي تتصور انها ستلحق بك ، فادفعها لك شيكا حالا .. كعربون . ان الثروة التي تنتظرك لو اقدمت على هذا العمل لعظيمة جدا . وما ارباح التجارة بالنسبة لها الا كقطرة في بحر .

س ـ هب اني نلت ثروة عظيمة . افلا تظن ان الترك سوف ينتقمون من ابي واخوتي واقربائي في الموصل ، وربما اصاب السوء اصدقائي ومعارفي فيها ايضا . ان الترك لا يغفرون لي مثل هذا العمل ، ولا اهلي الذين سيذهبون ضحية اقدامي عليه .

ل ـ ان من يطلب الاستقلال لبلاده ، والمجد لشعبه ولنفسه يهون عليه مقتل ابنائه في سبيل ذلك .

اختلاف بين ورثة

وهنا اعتدلت في جلستي ، وعزمت على ان اصارحه بوجهة نظري الحقيقية :

س ـ اريد الان ان اصارحك بالحقيقة كاملة ، اذا ضمنت لي السلامة وكتمان الحديث .

ل ـ اني ارجو ان تصرح بكل ما يجول في خاطرك ، ولك عهد بكتمان السر .

س ـ اني شخصيا لست ارى مبررا الى الانتقام من الترك ، اذ ليس بيننا وبينهم عداء ، انما العداء مستحكم بينهم وبينكم فحسب .

ل ـ عجيب ما تقول . اليس الترك اعداءكم ؟ الم يستعبدوكم القرون الطوال ؟ الم تحاربوهم بالسنتكم واقلامكم ، اما انتظمتم في جمعيات سرية وتآمرتم على حكمهم وودتم لو اخرجتموهم من دياركم ؟

س ـ لا تعجب مما قلت . فالترك لم يستعبدونا بالمعنى الصحيح ، لقد كان العربي والتركي سواسية امام القانون وكانت ابواب الوظائف الحكومية ومراتب الجيش مفتوحة للجميع ، فبامكان التركي ان يرقى في المناصب حتى يصبح واليا او وزيرا وكذلك العربي ان هو اثبت اهلية وجدارة ، اما الاكثرية فقد كانت من ابناء البلاد . اما نضالنا في السر والعلن ضد الحكومة العثمانية فقد كان في نطاق الشؤون الداخلية ،

ولغرض الحصول على بعض الحقوق المشروعة التي كانت الحكومة قد انكرتها على الشعوب العربية ، وللمطالبة بالاصلاح الداخلي بعد ان عم الخراب الدولة من اقصاها الى اقصاها . فكفاحنا والحالة هذه كان اشبه باختلاف بين ورثة ، كل يطالب بحصة اكبر . واني استطيع ان الخص نقاط الخلاف الرئيسية بين الترك والعرب في : عدم عنايتهم بالمعارف في البلاد العربية ، واستعمالهم اللغة التركية في المحاكم والدواوين الرسمية ، واستغلالهم موارد الاوقاف في بلادنا لاصلاح الاستانة وفي بعض الامور الثانوية الاخرى ، فلو ان الترك تساهلوا في تحقيق هذه المطاليب لزال الخلاف بيننا وبينهم . وانه لو لم تفاجئنا الحرب لكانت البلاد العربية قد نالت اكثر مطاليبها بدون اللجوء الى القوة . فمثلا ان الحكومة الاتحادية يوم شعرت بانتوائي (بنيتي) فضح سياستها في الاحساء استرضتني باتخاذ اللغة العربية لغة رسمية في محاكم العراق وذلك قبل نشوب الحرب العالمية بأشهر .

ل ـ اذن انت تحب الترك مع انهم لو ظفروا بك لاعدموك .

س ـ تأكد اني لا احبهم مطلقا ، بل وأنقم عليهم اكثر من ذي قبل بسبب اشتراكهم في الحرب وجرهم المصائب والويلات على بلادنا .

ل ـ لو علمت ما صنع الترك باخوانك السوريين لما ترددت في الانتقام منهم . ومهما يكن من أمر ، فأنتم معشر العرب ترزحون تحت نير الحكم العثماني ولابد لكم من تدبير حل لنيل حريتكم واستقلالكم .

مكيدة انجليزية

واستطرد لورنس يقول بلهجة مشجعة :

لا تستصعبن الاقدام على العمل ، فانه هين ونجاحه مضمون ، واذا شئت فباستطاعتي ان اجلب الى صفك من تعتمد عليه من الضباط العرب العاملين في القضية العربية ، وان احدا لن يتقاعس عن الانخراط في ثورتك لو دعوته الى ذلك . اكتب اليهم وانا اتعهد بايصال كتبك . وثمة طريقة اخرى تمهد امامك السبل لغزو جبهات العدو : المال ... ابعث الى القائد الفلاني (وهنا ذكر اسمه) بصره من الذهب فيغمض عينيه قليلا ، حين تكون قواتك مندفعة صوب خطوطه .

س ـ أما القائد فلا اعرفه ، واما الضباط فلن يصدقوا ما يجيء

بكتبي ، ظنا منهم بانني كتبتها مكرها . وان هي الا مكيدة انجليزية .

ل – ما رايك لو ختمت الرسائل بختم الاصلاحية(١٥) الذي هو بحوزتي الان ، هل يا ترى يبقى لديهم ادنى شك في صحة الرسائل ؟ ثم هناك الاصطلاحات السرية والاشارات الخاصة بالجمعية ، الجأ اليها ليطمئنوا الى كتبك .

س – لو اسلمنا جدلا بانهم آمنوا بدعوتي ، فقدموا الي واشتركوا معي في الثورة ، فمن الذي يضمن مستقبلهم ، ويصون حقوقهم ؛ ويعيد اليهم مناصبهم التي ضحوا بها من اجل الثورة ؟

ل – اذا شئت فاني اقدم لك تعهدا رسميا ، وبموجب هذا التعهد تستطيع ان تعدهم بضمان مستقبلهم ومستقبل البلاد .

س – هب انني اختلفت مع الانجليز ، فماذا تفيدني الوعود ؟ غدا يقولون لي : اذهب الى لورنس فهو الذي تعهد لك .

ل – اني اتعهد بأسم الحكومة البريطانية ، وزيادة في تطمينك فسيوقع عليها السير بيرسي كوكس ممثل حكومة صاحب الجلالة .

س – لو فرضنا ان حكومتكم تنصلت من وعودها ، فماذا عساني افعل بتلك الوريقة التي تحمل توقيع ممثلها ؟ واي سلطة اراجع كي ارغم الامبراطورية البريطانية على تنفيذ احكام التعهد ؟

ل – انك سيء الظن في شرف الحكومة البريطانية وفي صدق عهودها .. ثق ان حكومتي اذا قطعت على نفسها عهدا وفت به .. ثم لا تنسى ان العمل الذي عهدت به اليك انما هو لمنفعتكم ليس الا ، ولست اغالي اذا قلت ان بريطانيا في غير حاجة لمعونتكم الحربية .

س – لقد اتفقنا في بدء الحديث ان نتكلم بمنتهى الصراحة ، فدعني اجيبك بصراحة بان مفهوم السياسة لدى السياسيين يعني (الغاية تبرر الواسطة) وان مفهوم الشرف السياسي لديهم يعني (المصلحة الحكومية) فلا غرابة اذن ان اسأت بكم الظن . لقد اخذت بريطانيا هذه البلاد بالحرب ، ولا يخفى على احد ما تتطلب الحرب من دماء واموال وتضحيات ، فكيف تريدني اؤمن على قولك بان بريطانيا ستعيد هذه البلاد الى اهلها بمجرد انتصارها قائلة لهم :– هذه بلادكم واودعناكم !.. اتراها تعمل كل ذلك لان سليمان – مؤشرا الى نفسي – قام على رأس شرذمة ضد الترك ؟!..

ل ـ ثق بأن مصلحتنا تقضي بطرد الترك من هذه البلاد واعطائها الى اهلها . وما الثورة التي اريدها الا وسيلة لتحقيق ذلك . لقد قلت ولا ازال اقول بأن اكثرية الشعب البريطاني لا تريد استعمارا جديدا .

س ـ اذا كان الامر كما تقول ، فهذه مصر امامنا ، وقد مضى عليها سنوات وهي تناضل في سبيل استقلالها ، فلماذا تبخلون عليها به ؟

ل ـ ثق يا سيدي بأن مصر سوف تنال استقلالها قريبا ، وان الحكومة البريطانية عازمة على ذلك .

ثلاثة ضباط

س ـ حقق الله ذلك . والان كيف توفق بين رغبة الشعب البريطاني في نبذ الاستعمار وبين الوضع الحالي في الهند والمستعمرات المجاورة لها ؟

ل ـ بقاء الانجليز في الهند أمر ضروري ، فالشعب الهندي لا يمكنه الاتفاق على حاكم واحد او على تنصيب ملك واحد . في الهند مذاهب متنافرة وراجات متنافسون . وفي اليوم الذي تتوحد فيه كلمة الهند ، ستتركها بريطانيا بدون تماهل .

س ـ قد تكون هذه الفكرة حديثة التخمر في اذهان الساسة الانجليز ، اما عقلي فمتردد في تصديقها . .

ل ـ دعنا من الهند ، ولنعد الى بحثنا الاصلي . فهمت انه يوجد بين الاسرى هنا بعض الضباط العرب ، فهل تعرفهم ؟

س ـ اعتقد انهم لا يوافقون .

ل ـ ارجو منك ان تقابلهم الان وتقنعهم . ثم تعود الي في الساعة الخامسة في دار القيادة العامة فتبشرني بموافقتك على البدء في المشروع الخطير .

س ـ تأكد ان رايي لن يتغير قط ، وليس بوسعي القيام بهذا العمل ولا بغيره ، كما اني معتقد بعدم موافقة الضباط المومى اليهم على مؤازرتي .

ل ـ اني لا اقبل لك عذرا ابدا . واني واثق من شهامتك واخلاصك لبلادك ، ومن رغبتك الاكيدة في سعادة قومك . فاترك الاصرار جانبا واغتنم هذه الفرصة الثمينة .

س ـ اما طوعا فجوابي الرفض ، واما اذا اردت الاكراه ، فربما فضلت النفي او السجن .

ل ـ لا يمكن ان يتحقق شيء بدون الرضى او العقيدة ، ولن اسلك معك سبل الاكراه . ارجو الان ان تذهب الى اصحابك الاسرى ثم تعود مساء لمقابلتي . ارجوك ... ارجوك والح في الرجاء .

كانت الساعة قد جاوزت الثانية عشرة حين وجدت نفسي طليقا في طريقي الى مخزني . فتنفست الصعداء ولكنه لم يكن صعداء بالمعنى الصحيح ، فالعرض الذي قدمه لورنس لي اقلق بالي وشغل فكري . وهو وان لم يصدر منه اي تهديد او وعيد ، الا اني كنت اخشى ان يلجأ اليهم آخر الامر اذا طال اصراري واشتد عنادي . وجدت كاتبي في قلق واضطراب ، ففرح بعودتي سالما ، وارسلته ليطلب عمي وتوجهت توا الى الدار التي يقيم فيها الضباط الاسرى الثلاثة ، ورويت لهم الحديث بأكمله ، فلقيت منهم تصويبا لي واستحسانا لاجاباتي . وجلسنا نتداول في الامر ، حتى ازف موعد المقابلة الثانية ، فخرجت من بينهم في الساعة الخامسة والدقيقة الاربعين قاصدا دار القيادة العامة(١٦) .

بكل لطف

وفي الساعة السادسة دخل الكابتن لورنس فحياني ، ثم قبض على يدي بكل لطف واصعدني الى الطابق الاعلى من الدار ، حيث اخذنا مكانينا في غرفة هادئة ودار بيننا الحديث التالي :

ل ـ لاشك انك جئت تحمل الي البشرى بالقبول .

س ـ كلا ، مع الاسف ، فاني لازلت عند رايي السابق .

ل ـ لماذا ! هل قابلت اصحابك الضباط ؟

س ـ نعم ، قابلتهم فاستصوبوا رايي .

ل ـ اعتقد انك لو كنت مقتنعا لما عارضوك ، انهم يوافقون حتما متى راوا فيك اقداما على العمل واطمأنوا الى ثقتك في نجاحه .

س ـ اسمح لي ان اجمل لك رايي النهائي . اني لا اوافق مهمـــا حاولت . فلا تزعجن نفسك باعادة الجدل .

ل ـ يظهر انك صعب المراس ، وان اقناعك لا يتم بجلسات قصيرة . وحيث اني قد عزمت على السفر الى جبهة القتال في علي الغربي هــذه الليلة ، فأرجو أن تقبل دعوتي لك بالسفر معي ، كي يكون لنا متسع من الوقت لتمحيص الموضوع ودراسته ، ولن تستغرق سفرتنا اكثر مــن ثلاثة ايــام .

س ـ لو تكلمنا اسابيع فلن اتخلى عن موقفي ، فلماذا لا تدعني اعود الى داري حرا طليقا ؟

ل ـ ماذا يضيرك لو رافقتني الى ساحة الحرب ؟

س ـ كثير جدا يا سيدي ، فذهابي بصحبتك سيحمل الناس على الاعتقاد باني جاسوس وفي هذا الكفاية لتحطيم سمعتي .

ل ـ لا ارى ما يخل بسمعتك . اما اذا كنت تعني الاضرار الماديـة التي تلحق بك من جراء غيابك عن البصرة فهذا ما استطيع ان اعوضك عنــه اضعافــا .

س ـ المال لا يصلح سمعة المرء ، ثق بأن دخولي الى دار القيـــادة اليوم جعل مني في نظر بعضهم جاسوسا او عميلا فكيف بي اذا ذهبـت الى جبهــة القتــال ؟

ل ـ الاولى ان ترسل بطلب فراش لك فتسير الى علي الغربــي فورا . ولا تلتفت الى ما يقوله الناس .

س ـ اذا ارسلت بطلب فراش بنية السفر فليس الى علي الغربي . بل الى معسكرات الاسرى في الهند .

فاجاب لورنس مهدئا ، وكأنه شعر بتضايقي من الحاجه :

ل ـ معاذ الله ان اكرهك على ذلك . اذن اسمح لي ان اودعك الان آمــلا ان اراك عند عودتي .

س ـ ارجو لك السلامة ، ولا تنتظرن ان تلقى تبدلا في معتقداتي عند عودتـــك(١٧) .



بعد الاستسلام : طاوزند (الوسط) وعن يساره خليل باشا في بغداد

ومن اغرب الامور ، انه عندما انهى « لورنس » مهمته في « علـي الغربي » عاد ادراجه الى « البصرة » دون ان يحاول الاتصـال مـع « فيضي » او غيره ، بل اكتفى ، قبل توجهه الى « القاهرة » بالبرقيتين التاليتين اللتين عثرنا عليهما في وثائق وزارة الخارجية البريطانية نقتطف من الاولى منهما ما يلي وهو ينشر بالعربية لاول مرة :

« لقد كنت ابحث عن حزب موال للقضية العربية ، فاذا بافـراده لا يتجاوزون ١٢ رجلا . كان الحزب يتألف في السابق من سيد طالـب

وبعض اتباعه . اما اهل البصرة الاخرون فانهم اما من نجد . ولا يهمهم غير شؤون الجزيرة العربية ، او فلاحون مهتمون باشجار النخيل ، او من اصل فارسي » .

وتقول الثانية : « اذا اريد لسلطان تركيا ان يغيب عن المسرح ، فان الخلافة بالاتفاق التام بين المسلمين سوف تكون من نصيب عائلة الرسول التي يمثلها في الوقت الراهن شريف مكة (حسين) . »

هوامش الفصل السادس

(١) القائد العام للجيوش العثمانية في العراق وآخر وال على بغداد .

(٢) مساعد « خليل باشا » وكان يحل محله في قيادة القوات التركية عندما تكون لدى الاخير مشاغل او عند حصوله على الاجازة بعيدا عن ميدان القتال .

(٣) كان محاصرا مع قواته في « الكوت » .

(٤) PRO, Fo, 882, 9 April, 1916 · وتعني دائرة السجلات العامة / وزارة الخارجية البريطانية .

(٥) T· E· Lawrence, Seven Pillars of Wisdom, London, Cape

على الرغم من ان « لورنس » يحمل رتبة « كابتن » اي « نقيب » فانه كان يرى ان طبيعة عمله سياسية وان الرتبة تقديرية ، وكان يرتدي البدلة العسكرية احيانا .

(٦) على نهر « الغراف » المتفرع عن « دجلة » يمينا باتجاه « الناصرية » .

(٧) يقصد البيان الصادر عن الجنرال « مود » بعد دخوله بغداد في ١١ آذار ١٩١٧ .

(٨) ان الذي حدا بنا الى وضع هذا الفصل عثورنا مؤخرا على برقية موجهة من « لورنس » الى المكتب العربي ومنها نسخة الى وزارة الخارجية وستأتي التفاصيل فيما بعد .

(٩) ١٨٨٥ ـ ١٩٥١ ، من مواليد الموصل ، تلقى تعليمه فيها وفي بغداد ثم اسطنبول . كاد ان يصبح ضابطا لولا فصله ظلما حسب رأيه . انتمى الى مختلف الجمعيات والتنظيمات القومية العربية السرية . استقر في البصرة وصار من اهلها . مارس الوظيفة والصحافة والتجارة وصار عضوا في مجلس المبعوثان العثماني ومجلس النواب العراقي ثم اعتزل .

(١٠) اي : الدار رقم ٦ ، الشارع الاعوج .

(١١) تأسست هذه الجمعية على يد « عزيز علي المصري » عام ١٩١٢ وانخرط في صفوفها جماعة من الضباط والطلبة العرب وامتازت بكثرة العراقيين ونشاطهم فيها . وبينما

ورد في منهاج الجمعية ان غايتها السعي وراء الاستقلال الذاتي للعرب او اقامة اتحاد فدرالي بين العرب والترك ، فان بعض المصادر تقول انها هدفت الى تحقيق الاستقلال العام للعرب ، وكان للجمعية فرع في بغداد وآخر في البصرة وثالث في الموصل .

(١٢) استطاع « جمال باشا » وزير الحربية وقائد الجيش الرابع الذي شملت سلطته بلاد الشام والحجاز ان يعدم قسما من هؤلاء وغيرهم عامي ١٩١٥ و١٩١٦ .

(١٣) كلنا يعرف مدى وفاء بريطانيا بعهودها ووعودها للعرب بعد الحرب العالمية الاولى خاصة ما حدث لفلسطين .

(١٤) احد وجهاء البصرة .

(١٥) اسسها « طالب باشا النقيب » في البصرة عام ١٩١٢ واصبح « فيضي » معتمدا لها . انضم اليها اكثر الضباط العرب في ولاية البصرة ودعت الى اللامركزية في العلاقة مع الدولة العثمانية .

(١٦) نشر هذا الفصل من المذكرات في البداية ، في ثمانية اعداد من جريدة « صوت العراق » لسان « حزب النهضة » . وهي الاعداد ٥٥ و٥٦ و٥٧ و٥٨ و٥٩ و٦٠ و٦١ و٦٢ وبتواريخ ١٠ و١١ و١٢ و١٣ و١٤ و١٥ و١٧ و ١ تشرين الثاني ١٩٢٩ اي عندما كان « لورنس » والاشخاص الذين طلب من « فيضي » الاتصال بهم احياء ، مما يزيد من القيمة التاريخية الفريدة من نوعها لهذه الوثيقة .

(١٧) في غمرة النضال ، مذكرات سليمان فيضي ، بغداد ، ص٢٠٨ ـ ٢٢٥ . اما ما فعله الانكليز به جراء موقفه هذا فيوجد في المذكرات التي يمكن العودة اليها .

تنويــــه

يرجى قراءة السطر الثالث عشر من الصفحة السابعة كما يلي :

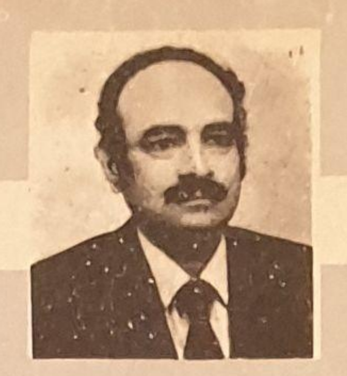
ولقد اوجس « المدفعي » بعد عودة الثلاثة واحتمال تكليفه برئاسة الوزارة خيفة من وجود « السعيد » في العاصمة .

المؤلــف

المحتويات

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٤٠٨ لسنة ١٩٨٤

مطبعة واوفسيت الشعب ـ بغداد هاتف : ٨٨٨٨٤٢٥



عن المؤلف

* من مواليد محافظة ذي قار / العراق / ١٩٣٥ .

* حاصل على بكالوريوس لغات اجنبية من جامعة ((بغداد)) وعلى شهادتين في تقدير مستوى اللغة من جامعتي ((لندن)) و((كامبرج)).

* شغل عدة وظائف لدى الدولة .

* عمل في جميع المجالات الاعلامية في العراق، بيد ان ابرز ماتميز به تقديمه برنامج ((القاموس السياسي)) من اذاعة ((بغداد)) يوميا ولست سنوات متواصلة .

* صدر كتابه الاول عام ١٩٧٦ ، أما ما اصدره حتى الان فقد بلغ ثمانية كتب .

* هذا هو كتابه التاسع .

* متفرغ حاليا للبحث والتاليف .

* عنوانه : ص.ب ٥١٦٥ بغداد .

سعر النسخة ديناران

شركة آسيا للطبع والنشر المحدودة
مطبعة واوفسيت الشعب
هاتف : ٨٨٨٤٢٥

منشورات وتوزيع مكتبة دار الكندي
مقابل معرض بغداد الدولي
ص . ب : ٨٠٦٢